

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique



المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف لميلة

المرجع:

معهد الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

التجربة الوجودية في سيرة "الضوء الأزرق" لحسين جميل البرغوثي

مذكرة معدة استكمالاً لمتطلبات نيل شهادة الليسانس
الشعبة: دراسات أدبية التخصص: دراسات أدبية

إشراف الأستاذ:

بن سخري زبير

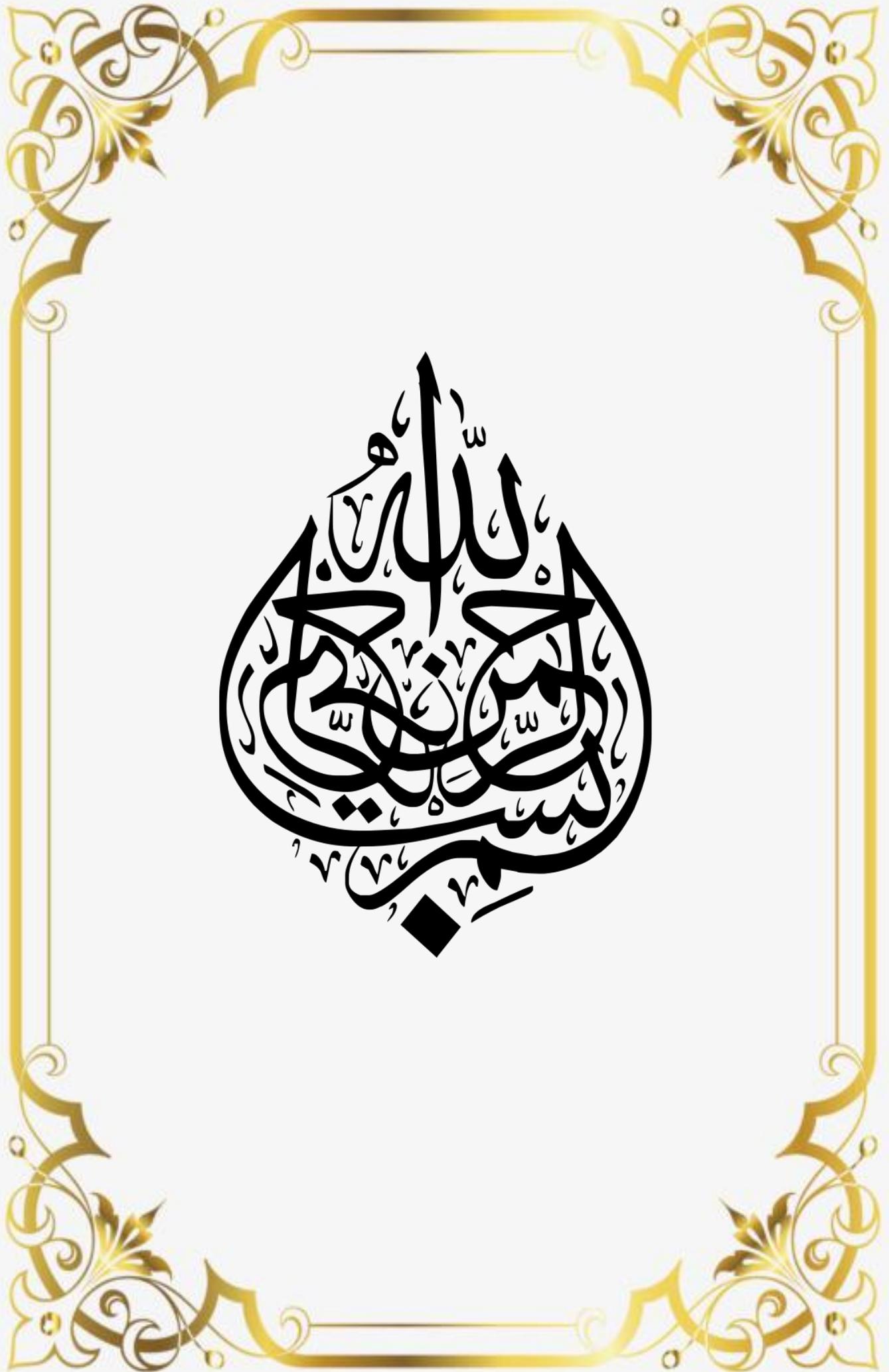
إعداد الطالب(ة):

*- أحلام مخاليف

*- أسامة مناع

*- أميمة ريان تولالة

السنة الجامعية: 2019/2018



دعاء

اللهم اشرح لي صدري
ويسر لي أمري وأحلل
عقدة من لساني يفقه قولي
توكلنا على الله

شكر وتقدير

لا بد لنا ونحن نخطو خطواتنا الأخيرة في الحياة الجامعية من وقفة نتذكر جهد الأساتذة معنا ونصحهم الصادق لنا، أن نتذكر من اللحظة الأولى التي بدأنا فيها هذا العمل، كيف تم توجيهنا من قبل أستاذنا المشرف، شكرا أستاذ من وهلة قبورك على الإشراف علينا، شكرا على وقوفك معنا، وعلى جهدك المبذول، كنت لنا أخ قبل أن تكون أستاذ، فننتوجه بكل عبارات الشكر والامتنان للأستاذ المشرف "زبير بن سخري" على جهده المبذول في إرشادنا وتوجيهنا لإنجاز هذا العمل.



إهداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كفاني عزا أن تكون لي ربا و كفاني عفرا أن أكون لك عبدا
أنت لي كما أحب فوفقتني إلى ما تحب

إلى من قال فيها الرحمن

<<وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا >>

- إلى الأصل الثابت والخصن الدافئ والدي الغاليان وإلى من جعلت الجنة تحت قدميها وإلى من ربّنتني و أنارت دربي وأعانتني بالصلاة و الدعوات، إلى رمز الحب والعطاء الذي ظل قلبها يطير معي كلما سافرت في طلب العلم، إلى أغلى إنسانة في هذا الوجود أمي الحبيبة <<فوزية>>.

- إلى من كلت أنامله لي لحظة سعادة، إلى من حصد الأشواك عن دربي ليمدد لي طريق العلم، إلى القلب الكبير الذي ربّاني فأحسن تربيتي أدبا ودينا وعلما، إلى فخري واعتزازي بانتسابي إليه حفظك المولى ورعاك يا أبي <<السعيد>>.

- إلى سندي ونور دربي في هذه الحياة إلى الأجراس التي أخرجت الأنفاس و حرّكت الإحساس، لتخبر الأجناس بأنهم أعزّ الناس أخواتي "شيماء"، "ونام" و الكتكوتة "شمس الأصيل".

- إلى الذين أحبهم عمتي و جدتي ورفيقة دربي "مريم".

- إلى من عمل معي بكدّ بغية إتمام هذا العمل زميلتي أحلام و أميمة ريان.

- إلى كلّ من نساها قلمي ولم ينساها قلبي، إلى كل من تسعهم ذاكرتي ولم تسعهم مذكّرتي وخصوصا الرّميل و الصديق "مناع محمد الأمين" أهديكم ثمرة

جهدي المتواضع.

"مناع أسامة"

إهداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا بد لنا ونحن في اللحظات الأخيرة من مشوارنا الدراسي أن نعود بذاكرتنا إلى كل من قدم لنا يد العون، وكانوا الداعم الأساسي، أهدي لكل من شاركني لحظات نجاحي هاته العبارات:

إلى من كَلَّه الله بالهيبة والوقار، إلى من علمني العطاء بدون انتظار، إلى من أحمل اسمه بكل افتخار، أرجو من الله أن يمد في عمرك لترى ثمارا قد حان قطافها بعد طول انتظار والذي العزيز "العمرى".

إلى ملاكي في الحياة، إلى معنى الحب، وإلى معنى الحنان والتقاني، إلى بسملة الحب وسر الوجود، إلى من كان دعائها سر نجاحي، إلى شمعة متقدة تنير ظلمة حياتي، إلى من عرفت معها معنى الحياة، أمي الغالية "سليمة".

وأهدي خمسة عشر من عمري عبادت بها طريقي الدراسي لأختوتي: أمي الثانية أهدي لك ثمرة نجاحي لطالما انتظرتها، أختي الكبرى "نجوى"، صورة معبرة عن نفسها بنفسها

أخي قرة أعيننا ووحيدنا "ناجي".

إلى القلب النابض، إلى فلذة كبدي، إلى الحمامة البيضاء، أختي "سامية". ملاكي البريء التقي النقي، إلى التي أسماها والذي بالناقة البيضاء، أختي "ياسمينة".

إلى آخر العنقود، أختي المدللة "شروق"، اسم على مسمى.

بمثابة أختي هي، شكرا على اهتمامك بي ومساعدتك... من تبسة "حدودة"

ناصر"

إلى بهجة البيت، ونورها، المدلل "محمد الأمين"

"أحلام"

إهداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله عزوجل الذي أعانني على إتمام هذا البحث
إلى الذي وهبني كل ما يملك حتى أحقق له آماله، إلى كل من يدفعني
قدما نحو الأمام لنيل المبتغى إلى الإنسان الذي امتلك الإنسانية بكل قوة،
إلى مدرستي الأولى في الحياة أبي الغالي على قلبي أطل الله في عمرك
"عبد الحميد"

إلى التي وهبت فلذة كبدها كل العطاء والحنان ، إلى التي صبرت على كل
شيء ، التي رعتني حق الرعاية وكانت سندي في الشدائد، وكانت دعواها
لي بالتوفيق، تتبطني خطوة خطوة في عملي، إلى من ارتحت كلما تذكرت
ابتسامتها في وجهي، نبع الحنان أمي، أعز ملاك على قلبي أمي "صباح"
إليهما أهدي هذا العمل المتواضع لكي أدخل على قلبها شيئاً من السعادة،
إلى إخوتي "منار" و"فارس" و"محمد" الذين تقاسموا معي عبء الحياة
إلى الذين أحبهم خالاتي وجدي "الخضر"
كما أهدي هذا العمل المتواضع إلى أعز صديقاتي إيمان مخالفة وابتسام
ورانيا وأمال وأشكرهم على مساندتهم لي.

"أميمة ريان"

مقدمة

مقدمة:

تعد الوجودية تيارا فلسفيا ظهر في القرن العشرين نتيجة الحرب العالمية الثانية التي خلفت أكثر من خمسين مليون قتيل حيث أصبح الناس في تلك الفترة ينتظرون الموت في أي لحظة، أي أن حياتهم لم تعد تعبر عن أي شيء سوى انتظار الموت، فباختصار حياة خالية من طبيعتها، وهذا مادفع بهم في تلك الفترة بتبني هذا التيار للتعبير عما يعيشونه فقاموا بنشر أفكارهم عبر المسرح، والأدب، والشعر حتى أنه أصبح من أشهر التيارات الفلسفية التي اتخذت من الإنسان موضوعا لها، كما أن الوجودية سميت بأسماء كثيرة منها: فلسفة العدم، الفلسفة الانحلالية، وفلسفة التفرد.

الوجودية في أول ظهور لها كتيار فلسفي كانت ملحدة لا محل للإله في حياتهم فيعتبرون الله غير قادر على حل مشاكل خلقه أما بعد ذلك ظهرت الوجودية المؤمنة التي تحاول رفع شأن الإنسان.

ففي بحثنا الموسوم ب: التجربة الوجودية في سيرة "الضوء الأزرق" لحسين جميل البرغوثي سلطنا الضوء على التجربة الوجودية العربية المسلمة ومن خلال هذا العنوان نطرح الإشكال التالي:

بما أن الوجودية هي شعور يراود الإنسان لمحاولة إثبات وجوده، فهل كانت لدى الإنسان قديما؟، وكيف هي نشأتها عند العرب؟، وماهي أهم مظاهر الوجودية التي توحى بوجودية حسين في سيرته الضوء الأزرق؟.

كون الفلسفة الوجودية هي فلسفة حديثة النشأة مقارنة مع باقي الفلسفات والفلاسفة الذين كتبوا ضمن هذا التيار من عمالقة الفلاسفة سواء غربا كانوا أم عربا فلا بد من وجود مكتبة ضخمة من المصادر والمراجع والمجالات التي أخذت هذه الفلسفة موضوعا لها وبعد اطلاعنا على الكثير منها اخترنا أكثرها أهمية ودقة على الرغم من تقاربها في المضمون إلا أن فيها ما يميزها عن غيرها وهي كالاتي:

1. محمد سعيد العشماوي، تاريخ الوجودية في الفكر البشري، دار القومية للطباعة والنشر
2. جان بول سارتر، الوجودية منزع إنساني، تر: محمد نجيب عبد المولى / زهير المدني،

دار علي، تونس، ط1، سنة 2012

3. أبو الوفا التفتازي، الإنسان والكون في الإسلام، دار الثقافة، سنة 1955،
4. إيريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، تر: محمود منقذ الهاشمي، ط1، سنة 2007
5. جون ماكوري، الوجودية، تر: إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة علم المعرفة مجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، العدد 58، الكويت، سنة 1978

ومن هذا المنطلق نستهل بحثنا حول التجربة الوجودية في سيرة الضوء الأزرق وسبب اختيارنا لهذا الموضوع يعود إلى حب الاطلاع من نافذة هذا البحث على ما تخفيه هذه الفلسفة من غموض لنكشفه من خلال بحثنا كما أننا أردنا أن نفك شيفرات عمل حسين البرغوثي الذي نال إعجاب الكتاب والنقاد في مدى توظيفه للرمز خاصة وبأسلوبه عامة. وقد رسمنا خطة ممنهجة إتفاقا مع الأستاذ المشرف إلا أننا قمنا ببعض التعديلات الجزئية الضرورية، مع الاحترام التام للمحاور الرئيسية والمتمثلة في:

مقدمة، خاتمة، قائمة المصادر والمراجع، وقد وردت الخطة كما يلي:

-الفصل الأول: وهو الجانب النظري يحتوي على ثلاث مباحث تحدثنا من خلالها عن ماهية الوجودية وعن نشأتها وأهم أسماء الأعلام البارزة في هذا التيار كما أننا تحدثنا عن كيفية دخول هذه الفلسفة إلى الأدب عامة والأدب العربي خاصة لأن هذا الأخير يمثل السيرة التي هي محور عملنا التطبيقي.

-الفصل الثاني: وهو الجانب التطبيقي ويتمحور حول سيرة " الضوء الأزرق " لحسين جميل البرغوثي وكيف وظف ملامح الوجودية في سيرته فقمنا بتحليلها وتقسيمها إلى ثلاث مباحث، فالمبحث الأول عن الظروف السياسية الواردة في السيرة، والمبحث الثاني تناولنا فيه تحليل شخصية حسين، أما المبحث الثالث فيتكلم عن الإله في السيرة.

وهذا لا يعني أن البحث يخلو من الصعوبات لأن كل عمل إذا أردنا أن يكون ناجحا لابد أن يكون شاقا ومتعبا، من أهم الصعوبات التي واجهتنا: افتقار المكتبة الجامعية للمصادر والمراجع التي تخدم موضوعنا، كما أن الإضرابات شكلت لنا عائق وقللت من فرصنا للاجتماع مع الأستاذ المشرف لاشتغاله بها.

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا المنهج الموضوعاتي حيث قمنا باختيار موضوع الوجودية وقمنا بدراسته وتطبيقه على السيرة لاكتشاف المواضيع الذي يمكن لهذا الموضوع أن يحملها في ثناياه

نتوجه بالشكر الجزيل للأستاذ المشرف "زبير بن سخري" وفائق الاحترام والتقدير له، والثناء على مجهوده معنا، كما نتمنى أن يلقى هذا العمل الترحاب وأن يكون خير نموذج لكل طالب بعدنا، وأن يحقق الهدف المرجو لبذله والله الموفق إن شاء بقدرته

**الفصل الأول: الوجودية من
القديم إلى الحديث وعلاقتها
بالأدب**

الفصل الأول: الوجودية من القديم إلى الحديث وعلاقتها بالأدب

المبحث الأول: ماهية الوجودية ونشأتها

المطلب الأول: تعريف الوجودية

المطلب الثاني: تاريخ الوجودية

المبحث الثاني: الوجودية والأدب

المبحث الثالث: الوجودية والأدب العربي

المطلب الأول: أثر الوجودية في الأدب العربي

المطلب الثاني: أثر الوجودية في الرواية

المبحث الأول: ماهية الوجودية ونشأتها

المطلب الأول: تعريف الوجودية

تعددت مفاهيم الوجودية في الأدبين العربي والغربي لتعدد وجهات النظر واختلاف التجارب، من ثم كان لابد من العودة للمفهوم الاصطلاحي والمفهوم اللغوي حتى تتضح الرؤية أكثر.

يوضح عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (100هـ - 175هـ) في معجمه العين تعريف الوجدية لغة، فيقول: « وجد: الوجد من الحزن. والموجدة من الغضب. والوجدان والجدة من قولك: وجدت الشيء، أي أصبته »¹، فالتعريفات اللغوية مجرد تمهيد لتعريف الوجودية فلا بد من النظر لتعريفات أخرى.

ويشير إليه كذلك الفيروز آبادي (1329 - 1414 م) في معجمه محيط المحيط فيقول: «وجد المطلوب... ادركه واصابه... واوجد الله تعالى الشيء جعله موجودا... الوجود مصدر وخلاف العدم»²، فمعجم محيط المحيط توسع في شرح وتفسير لفظة "وجد" حتى يعطي معنى أوسع قد يوصلنا إلى الفهم الصحيح والشامل، فالمعجمين السابقين لا يختلفان في نقطة أن الوجود هو إصابة الشيء وإدراكه.

يضيف الطاهر أحمد الزاوي (1890 - 1986 م) تعريفه لـ"وجد" في قاموسه مختار القاموس « و ج د: وجد المطلوب كوجد... ووُجِدَ من العدم... فهو موجود ولا يقال وجده الله تعالى. وإنما يقال أوده الله تعالى »³، فكل التعريفات اللغوية تتوافق فيما بينها في نقطة أن الوجود هو عكس العدم، وهذا هو الجزء المهم الذي قامت عليه هذه الفلسفة.

ومن عديد التأويلات التي انفتحت عليها هذا المصطلح نجد مجمع اللغة العربية بالقاهرة أضاف معنا آخر في معجم الوسيط أن: «... (وجد) الشيء من عدم وجودا... (الوجدان) (في الفلسفة): يطلق أولاً: على إحساس أولي باللذة أو الألم. وثانياً على ضرب من الحالات النفسية من حيث تأثرها باللذة أو الألم في مقابل حالات أخرى تمتاز بالإدراك والمعرفة»⁴،

¹ - أبي عبد الرحمن بن أحمد الفراهيدي، العين، دار المعارف، القاهرة، ج7، ص169.

² - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، قاموس محيط المحيط، دار الجبل، ص 958.

³ - الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس، دار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ص ص 648 649

⁴ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط 5، سنة 2011 م، ص 1013.

فصل معجم الوسيط مصطلح "وجد" تفصيلا واسعا ودقيقا يتوافق مع باقي التعريفات التي وردت في المعاجم السابقة، فيزيد عليهم بجزئية وهي تعريف الوجود والوجودية، قد يكون تطرق إليه المعاجم الأخرى؛ لكن هذا المعجم فصل وتوسع في مفهومهما الدقيق، وحتى من الناحية الفلسفية فيقول: «(الوجود): ضد العدم، وهو ذهني وخارجي (مج) (الوجودية): (بالمعنى الأعم) فلسفة ترى أن الوجود سابق على الماهية (بالمعنى الأخص): يذهب سارتر إلى أنها الحرية المطلقة، التي تمكّن الفرد من أن يصنع نفسه ويتخذ موقفه كما يبدو له، تحقيقا لوجوده الكامل (مج)»⁵، فقد وضح هذا المعجم معنى الوجودية المتداول حاليا في المواضيع الفلسفية، وهذا ما زاد ووضح معنى "الوجودية" وارتباطها بمادة "و ج د" في اللغة العربية.

وعلى نهج هذا التعريف يسير **محمد سعيد العشماوي (1932م - 2013م)**، فيعرف الوجودية في كتابه تاريخ الوجودية في الفكر البشري فيقول: «يفيد لفظ "الوجود" معنى الخروج من الشيء لان هي دلالته في هذه اللغة فأصل اللفظ في اللغة اللاتينية مكون من مقطعين هما Stere.ex والمقطع الأول ex يعني الخروج، بينما يعني المقطع الثاني Stere البقاء في العالم...»⁶، هذا المفهوم الغربي، سنتتبعه الآن في الفكر العربي وما هي الإضافات الخاصة بالتجربة العربية، فيقول العشماوي: «...لفظ "الوجود" في اللغة العربية يفيد اصلا معنى الحضور... وقد نقل اللفظ الى معنى آخر هو الكون أو العلم. فأصبح لفظ "الوجود" رمزا اجتماعيا للكون بكل ما فيه... ثم نقل اللفظ الى الفرد فلم يعد مقصورا على الكون... وهكذا أصبح لفظ "الوجود" في اللغة العربية معنى على الكون من ناحية، و تعبيراً عن عالم الفرد الخاص من ناحية ثانية.»⁷، فتعريف العربي للوجودية والوجود لا يقتصر فقط على الذات ودورها بل شمل الكون؛ كونه الميدان الذي تثبت فيه الذات وجودها، فاعتُبرت علاقة الوجودية بالإنسان دون الكون حلقة مفرغة؛ لأن الإنسان لا يستطيع إثبات وجوده إلا داخل الكون: «ومن مقارنة اللفظ ومعانيه في اللغة العربية باللغات الأوروبية يتضح أن هذه اللغات استعملت الفاظ existence الإنجليزية، existence الفرنسية، existenz

⁵ مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط 5، سنة 2011 م، ص 1013.

⁶ محمد سعيد العشماوي، تاريخ الوجودية في الفكر البشري، دار القومية للطباعة والنشر، ص ص 11 12

⁷ المرجع نفسه، ص 12

الالمانية بمعنى الوجود الفردي أى عالم الفرد الخاص حتى يظهر الفرق بينه وبين فعل الكينونة فى لغات هذه الألفاظ»⁸، وهنا يكمن التلاحم بين اللغات في توحيد المعنى للفظـة "وجد"، أي أنها تتفق فيما بينها في العنصر الأساسي الذي تقوم عليه الوجودية وهو عالم الفرد الخاص.

ومن التعريف اللغوي ننتقل إلى التعريف الاصطلاحي، للتعرف على الوجودية واهتماماتها بالذات الإنسانية داخل الكون، حيث جعلتها المحرك الأساسي لهذا العالم من خلال الحرية لنجد:

أن الوجودية هي مذهب أو تيار فلسفي لم يحض بمكانة بارزة بين باقي الفلسفات، أخذ الإنسان موضوعاً له، إهتم بأسلوب عيشه داخل هذه الحياة وتكيفه معها ومواجهة كل ما يعيق حريته، وعلى أنه فرد قادر على توجيه حياته وفق رغباته وميوله دون أن يحتاج إلى موجه، وهي تقوم على الحرية والالتزام والمسؤولية، حيث يعرفها جون ماكوري **John Macquarrie** في كتابه الوجودية فيقول: «إنها أسلوب أو طريقة في التفلسف قد تؤدي بمن يستخدمها إلى مجموعة من الآراء التي تختلف فيما بينها أشد ما يكون الاختلاف، حول العالم وحياة الإنسان فيه... فهو فلسفة عن "الذات" أكثر منه فلسفة عن "الموضوع"...فإن المرء لا بد له من تحديد الموقف الوجودي تحديداً أبعد، بأن يقول إن الذات عند الفيلسوف الوجودي هي الموجود في نطاق تواجده الكامل فهذا الموجود ليس ذاتاً مفكرة فحسب وإنما هو الذات التي تأخذ المبادرة في الفعل وتكون مركزاً للشعور و الوجدان»⁹، فلفظ الوجود له علاقة مع الذات الإنسانية وتكاييفها مع العالم، فكل ذات قادرة على رسم مسار الذي يناسبها، وهذا ما ولد تضارب واختلاف بين الفلسفات التي إهتمت بالذات الإنسانية وحريتها وطريقتها في تكوين جوهر لحياتها.

فقد تتوافق وتتشترك بعض التعريفات للوجودية في بعض النقاط عند مختلف الفلاسفة فكل حسب مذهبه، وهذا لا ينفي أنها قد تختلف وتتضارب في نقاط أخرى، وهذا ما جعلنا نأخذ تعريفاً آخر لها لجان بول سارتر **Jean-paul Sarte** (1905 - 1980 م) في

⁸ - محمد سعيد العشماوي، تاريخ الوجودية في الفكر البشري، دار القومية للطباعة والنشر، ص 12.

⁹ - جون ماكوري، الوجودية، تر: إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة علم المعرفة مجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، العدد 58، الكويت، سنة 1978 ص 17.

كتابه الوجودية منزع إنساني فيقول: « هي منزع يجعل الحياة الإنسانية ممكنة، ويعلن، إضافة إلى ذلك، أن كل حقيقة وكل فعل يستدعيان وسط وذاتية إنسانية.»¹⁰، فالوجودية لا تكتمل إلا بوجود ذات، وتؤمن بالفرد الذي يثبت وجوده في وسطه من خلال رداً فعله على ما هو محيط به، أي أن الذات التي تؤمن بها الوجودية هي الذات الفاعلة التي تثبت وجودها داخل هذا الكون، فالوجودية تقوم على شرطين أساسيين هما الذات والكون.

لنجد تعريف آخر لمحمد سعيد العشماوي يشير إلى أن الوجودية فلسفة حديثة المعالم، عزلت الإنسان عن العالم على عكس ما تناولناه في التعريفات السابقة، فيقول: «...إن الوجودية...هي كل جهد فكري يتناول بالشرح والتأصيل وجود الفرد على المعنى السالف بيانه. وهي...تطلق على الفلسفة الحديثة التي اهتمت بالإنسان نفسه دون الفكر والأشياء.»¹¹، وهنا يكون العشماوي قد همش كل من الفكر الذي يحدد مسار الذات ومبتغاها داخل الكون، كما أهمل الكون بأسره، فقد اهتمت بالإنسان فقط واعتبرته هو الموجود في الوجود دون أن تبدي اهتماماً للوجود.

تبقى هذه التعريفات للوجودية من ناحية كونها فلسفة أو تيار يقدر الذات والكون الذي هو مسرح تستعرض على خشبته دورها الحقيقي لا المزيف، بحيث أنها تعيش الحرية الكاملة، ومن هذا المنطلق يتشقق ويتصدع المعنى الوجودي، فيظهر عنه إتجاهات أخرى للوجودية منها ما هو مؤمن ومنها ما هو ملحد، فهذين الإتجاهين يفصلهما خطين عريضين وهما الله والحرية.

لنجد أن الوجودية المؤمنة تختلف عن باقي الفلسفات وخاصة الفلسفة الملحدة، أما الوجودية المسيحية فتدخل ضمن الوجودية المؤمنة - فالمراد من تسميتها بالوجودية المؤمنة هو اعترافها بوجود الله تعالى - فتفتح المجال أمام العقل للتأمل والتدبر في ملكوت الله دون الخضوع في كينونته، فهي تضع حداً للأسئلة حول وجود الله وقدرته، فتري أن: «الإنسان بطبيعته كائن مفكر، منذ وجد على الأرض وهو دائم التفكير فيما حوله، وسيظل كذلك طالما هو موجود عليها...ونحن لا نقول مع سارتر: «إن الإنسان محكوم عليه بأن يكون حر»،

¹⁰ - جان بول سارتر، الوجودية منزع إنساني، تر: محمد نجيب عبد المولى/ زهير المدني، دار علي، تونس، ط 1، سنة

2012 م ، ص 21 .

¹¹ - محمد سعيد العشماوي، تاريخ الوجودية في الفكر البشري، دار القومية للطباعة والنشر، ص 07 .

وانما نقول ان ماهو اكثر حقيقة " ان الانسان محكوم عليه بأن يكون مفكرا"، ومادام الانسان قد حكم عليه بأن يكون مفكرا، فسيظل يتساءل بين الحين عن علاقته بهذا الكون»¹²، الفرق بين الحر والمفكر هو ما ولد تيارين مختلفين من الوجودية، فالحرية المطلقة لم تكن مبدأ أساسيا للوجودية، فتجعل من الوجودي ملحدا، فما هي إلا فكرة متبنات لكي يعيش الفرد الحرية التي يحتاجها تحت راية الوجودية.

هذا ما كان بخصوص تعريف الوجودية حسب رأي أبو الوفا التفتازي (1994 - 1930م) في كتابه الإنسان والكون في الإسلام.

إذا كانت الوجودية عموما تقول بأن الإنسان سابق لماهيته فالوجودية المؤمنة تتخالف معها في هذه النقطة، كونها تستشهد بقوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنْ خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ»¹³، فالوجودية المؤمنة هي على دراية ببداية خلق الإنسان، والإنسان واع لإنسانيته، فالوجودية المؤمنة اتخذت القرآن الكريم - وكذلك هو الأمر مع باقي الديانات السماوية اعتمدت على كتبها كل حسب ديانته - مرشدا لضالتها فهي تثبت لنفسها قبل الفلسفات الأخرى أن: «القرآن الكريم أراد ان يطهر العقول من الاعتقادات الباطلة الموروثة... فاذا تخلص العقل الانساني عن مثل هذه العقائد والتصورات الباطلة التي لا يقوم عليها دليل أو برهان، استطاع ان يقبل متحررا من كل قيد على النظر في الكون نظرة موضوعية فاحصة يتوصل منها الى الايمان بوجود خالق له، والى فهم صلته بهذا الكون وبخالقه، ورسالته في هذه الحياة الدنيا.»¹⁴، فالوجودية هنا أعطت الحرية للإنسان في النظر في الكون، لا للشك في وحدانية الله وألوهيته وربوبيته، ولكن قد تشمل الأزمة الوجودية هذه المفاهيم المقدسة ولكن لا تنفيها.

إن الوجودية المؤمنة لا يقصد بها الإسلام فقط بل تشمل الديانات السماوية التي تؤمن بوجود الله، فيقول كيركغارد **Kierkegaard Soren (1813-1855 م)** المعانق للديانة المسيحية: «إني أوتر أن ألعب الميسر، وأن أعبث، وأن أزني، وأن أسرق، على أن

¹² - أبو الوفا التفتازي، الإنسان والكون في الإسلام، دار الثقافة، سنة 1995 م، ص 15 .

¹³ - القرآن الكريم، سورة يس، الآية 77.

¹⁴ - المرجع السابق، ص 34 .

اشترك بمؤامرة الهزة بالله ¹⁵، وهنا تكون قد اشتركت الوجودية المؤمنة فيما بينها رغم اختلاف ما تحتويه من ديانات.

الوجودية الملحدة تختلف عن الوجودية المؤمنة؛ سواء من ناحية وجود الإله أو الحرية ذات المجال المفتوح، التي لا يحكم فيها لا قانون سماوي ولا قانون إجتماعي، لنجد أن الفلسفة الوجودية فلسفة قائمة على إثبات الذات الإنسانية مواجهة بها كل التحديات على مستوى التاريخ والزمان والمكان، فتضاربت الآراء حول مدى الحرية في إثبات الذات، وهنا انقسم الفلاسفة الوجوديين كل حسب رأيه وديانته ومذهبه، فظهرت منها الوجودية الملحدة التي لم تؤمن قط بالله أو بحدوده، فقد ظهرت مع جان بول سارتر إبان الاحتلال النازي في الحرب العالمية الثانية، حيث كثر الموت وأصبح الإنسان يعيش حالة قلق الدائم والمسيطر على حياته، فأصبح يشعر بالعبثية أي عدم وجود معنى للحياة فنشأ شعور باليأس، فكان أول سؤال طرحه أصحاب هذا الإتجاه هل الله فعلا موجود؟ وإن كان موجودا لماذا سمح بهذه الحرب؟، حتى وإن كان موجود فهو عاجز على حل مشكلة الإنسان، لماذا ننسب هذا العالم المليء بمثل هذا السوء إلى خالق عادل ومنصف؟.

يُعَرَّفُ الإلحاد الوجودي على أنه: «يقوم على رفض الإعتراف بسلطة الإله من أجل الحفاظ على الحرية الإنسانية... فهو إلحاد أخلاقي قيمي، إلحاد أكسيولوجي وليس أنطولوجيا.»¹⁶، فهذا الإتجاه من الوجودية لم يكن فقط ليشك في الله بل ليمارس حريته كاملة دون الخضوع لأي سلطة، حيث يقول فريدريك نيتشه **Friedrich Nietzsche (1844 - 1900)**: «أستحلفك بحبي لك وأملي فيك ألا ترفع عنك البطل الكامن في أعماقك، إذ إن عليك أن تحقق أسمى أمانيك»¹⁷، فكل الحريات التي أعطتها الوجودية الملحدة للذات من أجل تحقيق هدفها في الحياة، وهي عموما ما كانت ضمن اللذة والمتعة، فالمولّد الأساسي لهذه الحرية هو الموت، حيث يقول إريك فروم **Erich Fromm (1900 - 1980 م)** في كتابه الإنسان من أجل ذاته: «إن الانقسام الوجداني الأهم هو الانقسام بين الحياة

¹⁵ - روجر ل. شن، الموقف الوجودي نظرة عالم مسيحي إلى الفلسفة الوجودية، تر أنيس فريحة، الخدمة العربية للكراسة بالإنجيل، ص 34 .

¹⁶ - موت الرب وموت الأب - دراسة في الإلحاد الوجودي - نيتشه ودوستوفيسكي، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، العدد 19، سنة 2010 م.

¹⁷ - المرجع نفسه .

والموت...والإنسان مدرك هذه الحقيقة، وهذا الإدراك الشديد يؤثر بعمق في حياته.¹⁸، فمن منطلق الموت جاءت فكرة الوجودية الملحدة حتى تعيش لذتها كاملة، فمن شعارهم أحب ما لن تراه مرتين أو تمتع بيومك.

المطلب الثاني: تاريخ الوجودية

إن الفكر البشري مر بعدة مراحل مختلفة في تطوره وتقدمه نحو الازدهار، وفيها انفتح الفكر على أفق الوجود وأثبت الإنسان وجوده، فأقام حضارات مختلفة على مر الزمان، ومنها ما عاد بالفكر للخلف فأصبح منغلقا لا يقدم ولا يؤخر شيئا، بل زاد الحياة عبئا ومن هنا نجد:

إن لفظ الوجودية يلزم الفكر البشري منذ القدم حيث أنه يعد أسلوبا في الحياة، وهذا ما ميز الإنسان عن غيره من الكائنات، فالكائنات الأخرى تعيش على الأرض بخصائص تكفل دوامها، فالجنس والأكل والشرب مجرد أجهزة تدفع إلى طلب ذلك. أما الإنسان فهو يحيا، فالفرق بين العيش والحياة هو محاولة التعبير، فالإنسان يحدد موقفه دائما في كل شيء يحيط به؛ سواء أكان بالإيجاب والسلب أو بالقبول والرفض، فهو قادر على تغيير الأشياء حسب ردت فعله تجاهها.

وهذه المقارنة لا تقتصر فقط على الإنسان مع باقي المخلوقات، بل تمتد حتى بين الإنسان المعبر عن ذاته والإنسان الراكد الذي يسير على منحى رسمه معبر غيره، فهذا النوع من البشر يصنف ضمن عالم الأموات لقبوله وارتضائه واستسلامه لكل الأحوال وخضوعه لها، فهم يكتفون بتعبير غيرهم دون أن يحاولوا هم التعبير عنها، وهذا النوع يعد خارج حلقة الوجودية.

فالإنسان تدرج تعبيره عن ذاته عبر الحضارات القديمة من الفنون التشكيلية كالنحت والزخرفة وبعدها الشعر ومن ثم القصائد والملاحم¹⁹، وطالما أن الوجود بالمعنى العام يعد أسلوبا للحياة فقد اختلف وتطور من شخص لآخر، ومن حضارة لأخرى، فقد نلاحظ هذا من خلال تحليلنا للحضارات انطلاقا من الحضارة المصرية، كونها الحضارة التي فتحت مجالا أمام الحضارات الأخرى للنشوء والتطور.

¹⁸ - إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، تر محمود منقذ الهاشمي، ط1، سنة 2007 م، ص ص 76 77

¹⁹ - انظر: محمد سعيد العشماوي، تاريخ الوجودية في الفكر البشري، دار القومية للطباعة والنشر، ص ص 17 23.

تعد الحضارة المصرية من أقدم الحضارات فتميزت باستمراريتها وطول أمدها، فظهر فيها النحت والرسم، فهذين الميراثين نوعاً من أنواع التعبير الوجودي، فهذه الحضارة قامت على الفطرة الأولى للبشرية، ونمت مع نمو الذات البشرية، فظل الفكر سليم من تداخلات الفكر الآخر، وهذا ما حافظ على الفهم حزمة واحدة ويتركز في بؤرة واحدة ويتسم بالبساطة، وقد توصل الفهم لدى المصريين إلى أن ضمير الإنسان يتكون من صفات الإله، وهنا ظهرت الفكرة الفرعونية، حيث كان فرعون يمثل الإله بالنسبة للمصريين القدامى، فكان هو من يأمر وينهى ويحلل ويحرم من أجل نيل ما كانت النفس تسعى إليه بصعوبة، من عدل ومغفرة ونيل الرضى، وبهذا اكتمل القوام الفكري لدى المصريين.

فإلى جانب الحضارة المصرية قامت الحضارة الهندية التي تشاركت معها في فكرة الوجود وتناقت معها في بعض النقاط منه، فالحضارة الهندية اعتبرت الإنسان جزءاً من كل موجود، فإذا أراد الإنسان أن يذيب ذاته في الكون عليه أن يلتمس القربى بينه وبين غيره من الخلق، وعند تحقيق هذا يصل الإنسان إلى النرفانا، وهي الحكمة العليا وصفاء الروح. وتلت هاتين الحضارتين العديد من الحضارات التي عملت على اكتشاف الذات والفكر والكون وعلاقتهم ببعضهم البعض كالحضارة الإغريقية والرومانية، اللتين تركتا أثراً كبيراً في الحضارات الموالية لها، وحتى في وقتنا هذا لازال أدبهم وثقافتهم حيّان بين جميع الثقافات.

أما عند العرب وقبل الرسالة المحمدية كانوا لا يميزهم فكر خاص؛ وإنما كانوا يرددون بعض الأفكار الفارسية والهندية والمسيحية وكذلك اليهودية، فوجودهم في هذه الفترة كعدمه لا يضيفون للوجود شيء، وبعد الرسالة ظهرت فكرة التجربة، وقد جاء القرآن الكريم ليحدد نطاقها، لقوله تعالى: «ونبلوكم بالشر والخير»²⁰، وكذلك: «وابتغ فيما آتاك الله دار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا»²¹، فهذه الآيات وغيرها أتت لتنبه الإنسان بحدود تجربته، فهناك ما هو خير له وما هو شر، وأن لا يتجنب التجربة لتقادي الشر لدرجة إهماله لدنياه، وبها انفتح المجال أمام الوجود، حيث أن الإسلام بجّل العقل فبه يحسن أو يسيء إلى وجوده، فالوجود عند الإسلام يبدأ من العقل ليطبق التجربة فتظهر نتيجته عقب الموت.

²⁰ - القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية 35 .

²¹ - المصدر نفسه، سورة القصص، الآية 77.

هذا فيما يخص الوجود في الفكر القديم داخل الحضارات، وسنرى الآن كيف هو الوجود في الفكر الوسيط.

في هاته الفترة لا يزال الوجود الإنساني كما هو من ناحية حريته، فشهد قمة الفكر، إلا أنه إنكس في بعض المرات؛ وهذا يعود إلى انتصار الجهل مرة وإلى انكساره مرة أخرى، فكان من المتوقع أن يتطور الفكر البشري خلال هذه الفترة أو على الأقل أن يحافظ على ما كسبه من قبل، لكن حدث العكس، فقد انحصر الفكر كله في الشرق العربي إثر نهضته الإسلامية، ولكن جاء جيل أضاع التجديد واتبع التقليد فسار بأنفسهم عكس التيار، فتعثر الفكر الصوفي في أوجه حيث وقف وقفة مقارنة بينه وبين الفلسفة اليونانية بإظهار عظمتة مقابل ضعف هذه الفلسفة، حيث وضع نفسه في مقارنة مع فلسفة قوامها الشك والجدل²²، وبهذا فتح المجال أمام الفلسفات الملحدة التي دخلت بأفكارها على الخاصة والعامة، فالبعض أطلق العنان لعقله بعيدا عن الأصول، وأما البعض الآخر كان أكثر إتزاناً وواقعية.

وفي هذه الحقبة ظهر عبد الرحمن بن خلدون بأفكاره ودراسته التي إتخذت الفرد وما حوله من مؤثرات علما لها، فأسس علما يدعى علم الاجتماع وعلى هذا المنهج سار مفكرون آخرون مثل محي الدين والقديس توما الأكويني وغيرهم، فبرز في هاته الفترة الفنون، والآداب، و الأمثال، والشعر، للتعبير بها عن الذات الإنسانية ووجودها، حيث كان الشعر أحسن ما صور المعاناة الإنسانية، ومن خلال كل هذه الوسائل خرج الإنسان للحياة واتجه للوجود بكل طاقته.

فلاحظ أن الفكر في هذه الفترة قد تغير عن الفكر في الحضارات القديمة، بحيث أقاموا له علم خاص به، ولا ننكر أنه في بعض المواضع كان الفكر سابقا متقدما على ما هو عليه في هذه الفترة.

ومن الوجود في الفكر الوسيط ننتقل إلى الوجود في الفكر الحديث، فنتعرف على أهم الفلاسفة الوجوديين في هاته الفترة.

إن الوجود في الفكر الحديث اختلف تماما عن الوجود والفكر في العصر القديم والوسيط، حيث انفصل الفكر عن العمل فكان هذا الافصال حاجزا أمام التقدم²³.

²² - انظر: محمد سعيد العشماوي، تاريخ الوجودية في الفكر البشري، دار القومية للطباعة والنشر، ص ص 64-79.

²³ - انظر: المرجع نفسه، ص ص 81-88.

وعلى إثر هذا الاختلاف ظهر الفيلسوف جورج فيلهلم فريدريش هيغل **Georg Wilhelm Fridrich Hegel (1770 - 1831 م)** بفلسفته التي تمجد العقل على العمل، بحيث أنه هو الذي يفكر ويخطط ويبني المستقبل، فبدون العقل لا يمكن للعمل أن يصنع نفسه.

ظهر كذلك **كيركغارد** الذي كان إنسانا بما تحمله الكلمة من معنى أكثر منه فيلسوف؛ نتيجة لما تعرض له من أزمات، فهو أول من هاجم الفلسفة الهيجلية، وأول من جعل من الأزمات النفسية والتجارب الشخصية بداية لفلسفته الحديثة، فكانت الذاتية أساس الفلسفة عنده؛ من أجل إثبات مكانتها داخل الكون، حيث يلخص فلسفته في: «أنها تقرير لما في الحياة من تناقض، وتأكيد لقيمة الذاتية في السبيل المؤدى الى الحق، وإيمان كامل بأن الذات المطلقة يمكن تتكشف للذات الفردية من خلال الالم والقلق والحصر النفسى»²⁴، وهذا نتيجة ما عاشه الفيلسوف من معاناة، فهو يؤمن بأن الذات تكشف حينما تتأذى من العالم فتخرج لتبرهن عن وجودها وألمها وإلا تصنف ضمن عالم الأموات، ولكن ما جاء به سبقه إليه الشعر قديما في التعبير عن المعاناة، ففلسفة كيركغارد كانت ردت فعل قوية على الفلسفة الهيجلية والفكر الموضوعي.

كانت فلسفة كيركغارد ستؤخذ كمعيار للفلسفة الحديثة لو لم يظهر الفيلسوف الألماني **إدموند هوسرل Edmund Husserl (1859 - 1938 م)**، الذي وضع منهج خاص عن فلسفة الظواهر فساد هذا الأخير منهاجاً للفكر، فهوسرل دعا أن لا نحكم على الأشياء إلا من خلال الشعور تجاهها، فنقطة إلتقاء كل من الفلسفتين الظاهرية والوجودية هي إهتمامهما بالذات الفردية والشعور الخاص، أما الاختلاف بينهما أن الأولى تعتبر الشعور هو الوجود والثانية تعتبر الأشياء والشعور بها هما الوجود.

لقد بدأ الفكر الوجودي منذ أن خلق الإنسان، فمر على عدة مراحل وهي: الإيمان بالإنسان، وقدراته، ثم بالإنسانية ككل، ثم الإيمان بالله وقدرته، وإن كَفَرَ بأحد هذه القواعد ساد الكفر في الباقي، وهذا الكفر كان سببا في دخول العدمية إلى الفكر الوجودي.

بعد كيركغارد وفلسفة هوسرل جاء **جبريل مارسيل Gabriel Marcel (1889 - 1973 م)**، أول من استخدم فلسفة هوسرل في فكره، فهو لم يعبر إلا عن تجربته الخاصة،

²⁴ - محمد سعيد العشماوي، تاريخ الوجودية في الفكر البشري ، ص 87.

فجعل الجسد البشري نقطة البداية، فهذا الجسد همزة وصل بين الذات والعالم الخارجي، فكان الوجود عنده يمثل العمل، وعلى الإنسان أن يتحمل مسؤولية أفعاله.

مارتن هيدجر Martin Hedegger (1889 - 1979 م) الفيلسوف الألماني الذي يرى أن الوجود يعنى بالإنسان وحده، فيحده ماضٍ ومستقبل، فالماضي لا دخل له فيه والمستقبل مصير لا بد من مواجهته، فالوجود عنده مجرد مسافة بين الإنسان ونفسه عليه اجتيازها، وأن هناك موت يعيق طريقه في أي لحظة، فالوجود الزائف عند هيدجر هو الهروب من الحرية والتخلص من القلق، والوجود الحقيقي هو مجابهة الواقع والتصدي له، والوجود الصحيح هو ما يصل عن طريق القلق، والقلق يأتي من الشعور بالعدم، وبهذا دخل العدم إلى فلسفة الوجود فأصبحت فلسفة عدم.

جان بول سارتر فيلسوف ملحد، ونستطيع القول هو أول من أدخل الإلحاد للفلسفة الوجودية، وهو زعيم هذا الاتجاه؛ لأنه أول من قبل أن يوصف إتجاهه الفكري بالفلسفة، فقد التقت فلسفته مع الحرب العالمية الثانية، حيث تدمر العالم على الصعيد المادي و البشري والنفسي، فأصبح الناس وكأنهم سكارى أو صرعى من شدة التشنت والضياع، فتبنوا فلسفته للتعبير عن ذاتهم الضائعة بين أنقاض الحرب بكل حرية دون الخضوع لأي سلطة؛ سواء أكانت الإلهية أو الإجتماعية، وفلسفته تقوم على جملة **ديكارت René Descartes** " أنا أفكر إذن أنا موجود " فهو يعطي حق الوجود لكل ولأي شيء²⁵

وبهذا انغلق الفكر الوجودي حيث أصبح الوجود ينبع من الألم والقلق بعدما كان ينبع من العمل والتفكير في كيفية تطوير الذات داخل الكون، فدخل الإلحاد على الوجودية وأطلق العنان للحرية، وأصبح موضوعها عن الذات كونها شيء مقدس، فبدلاً من أن تسعى هذه الذات نحو التقدم أصبحت تدور حول نفسها.

فمن خلال هذا المبحث نستنتج أن المعنى الوجودي هو شعور يراود الإنسان منذ الوهلة الأولى التي يعي فيها إنسانيته، وأن عليه ممارسة هذا الشعور كما يرى هو، حتى يتحول من شعور بالوجود إلى تحقيق الذات داخل الوجود، وهذا ما سعى إليه الإنسان قديماً إلى أن جاء الدور على الفلاسفة فأقاموا له فلسفة وعلم قائم بذاته، وهذا ما نلاحظه من

²⁵ - انظر: محمد سعيد العشماوي، تاريخ الوجودية في الفكر البشري، دار القومية للطباعة والنشر، ص 89-98.

خلال تطور الإنسان داخل حضارته، وكيف يسعى إلى تحقيق ما هو أفضل من خلال وجوده حتى تطور هذا الشعور وأصبح علم وتبنوه الفلاسفة.

المبحث الثاني: الوجودية والأدب

امتزجت الفلسفة الوجودية بالأدب وبالأخص في مجال الرواية، والمسرحية؛ وذلك لأنها من أفضل الوسائل تحليلاً للواقع الإنساني، والكشف عن سائر الضغوط والتحديات، فالوجودية من أهم الحركات الفكرية التي تمكنت من ترك بصمتها وتأثيرها على الأدب، وهذا ما توضحه الوجودية الفرنسية عند جان بول سارتر في كتابه "ما الأدب"، وتكمن علاقة الأدب بالوجودية فيما يلي: «تنتهي الوجودية إلى موجة المذاهب التي عمت إلى أوسع نطاق، فكرة العدم واليأس من الوجودية التي تستجيب بقدر كبير للهلع المستولي على الإنسان المعاصر أمام أزمات المدينة المفجعة»²⁶، ومن خلال هذا القول يتضح أن الوجودية تنطلق من فكرة أساسية وهي العدم أو اليأس من الوجود الإنساني؛ بسبب الظروف التي يتلقاها الإنسان من خلال التطورات الاجتماعية المختلفة.

إن الأدب الوجودي يهتم بدراسة سلوكيات الإنسانية الميتافيزيقية أي ما وراء الطبيعة: «كما يتصف الأدب الوجودي بالتوتر والغموض، فهو ينشغل بالصدى الميتافيزيقي والأخلاقي للسلوكيات الإنسانية، انطلاقاً بأن كل مصير هو مصير خاص، وأن لكل إنسان حقيقته الخاصة، وأن أي مرجع خارج عن الإنسان مصيره، فتبقى وظيفة الأديب أن يضع شخوصه من صميم المشكلة»²⁷، وبهذا يتضح أن الأدب الوجودي يدرس الأشياء الميتافيزيقية الأخلاقية للسلوك الإنساني، وإن لم يكن هناك وجود للإنسان فلا توجد حقيقة أو مصير، فالإنسان هو الذي يحدد وجوده.

إن الوجودية وجدت فضاءً واسعاً في القصة والمسرحية للتعبير عن مختلف المشكلات الإنسانية المرتبطة بحقيقة وجوده؛ لأنها تعبر عن فعل وعاطفة قبل أن تعبر عن فكرة؛ لأن الوجودية تعبر عن نفسها من خلال الحوادث، خطابات سردية، أكثر مما تعبر عن نفسها في كتب تجريدية فلسفية ولهذا تقول **سيمون دي بوفوار Simone De Beauvoir (1908-1986)**: «إذا كان وصف الماهية يعود إلى الفلسفة الخالصة

²⁶ - بيير دو كاسيه: الفلسفات الكبرى، تر: جورج يونس، منشورات عويدات، بيروت، ط2، سنة 1977 م، ص 197.

²⁷ - ر. م. ألبيريس: الاتجاهات الأدبية في القرن العشرين، تر: جورج طريبيشي، منشورات عويدات، بيروت، سنة 1980م،

فإن الرواية وحدها هي التي تسمح بإحياء الانبثاق الأصلي للوجود في الحقيقة التامة»²⁸، ويتبين لنا من خلال قول دي بوفوار أن العمل الروائي الوجودي فيه علاقة جوهرية مفقودة بين الأديب والعالم الخارجي.

لقد كان للوجوديين من خلال هذا الاهتمام بالأدب نظرة خاصة إلى طبيعة الأدب، ووظيفته، حيث يمكن اعتبار جان بول سارتر أوسع الوجوديين تأثيراً في أدياء العصر من جهة وأكثرهم عناية بالبحث في الأدب من جهة أخرى.

إن العلاقة بين النقد الأدبي وحقول المعرفة الأخرى لاسيما الفلسفة هي علاقة تتجاوز وثيقة، فالنص الأدبي بحكم طبيعة بناءه الخاص لا يستطيع إلا أن يكون محصل للمعايير المعرفية والجمالية العامة ومنه: «تبدو العلاقة بين النقد والفلسفة أقوى مما كانت عليه في حالات كثيرة كحالة الفلسفة الوجودية، حيث يبدو أن النقد الأدبي جانبا من جوانب نشاط فكري، تخضع قيمه ومفاهيمه خضوعاً مباشراً أو غير مباشر للعناصر الرئيسية في النظرية الفلسفية، بدليل أن النظريات النقدية مرتبطة ارتباطاً كاملاً بالفكر الجمالي الاستطقي»²⁹،

إن الأدب يسمح بالتوسعة للفكرة الفلسفية أكثر من الفلسفة؛ لأن القواعد الشكلية في الإبداع أكثر تحرراً في النصوص الأكاديمية: «ولسارتر عدد من الكتب والمقالات النقدية فهو ينطق دوماً في كتاباتها من دعامة فلسفية، الوجود يسبق الماهية، والماهية هي الذاتية، والذاتية هي ما يصنع بمحض الإرادة والحرية الملتزمة، والتزامها يتجدد في أنها حين تختار لنفسها تختار للآخرين، وبهذا يكون كل إنسان حر هو إنسان مسؤول»³⁰، ولما كانت فلسفة سارتر تتجه قبل كل شيء إلى الإنسان فإنه لم يجد بداً من مزج الأدب بالفلسفة، ومن هنا كانت روايته: "دروب الحرية" و"الغثيان" والعديد من المسرحيات، ويمكن القول أن أعظم تجلي للفكر الفلسفي في القصة.

ويعود سارتر في سنواته الأخيرة إلى الشكل القصصي فينشر روايته الضخمة "دروب الحرية" في ثلاث أجزاء، وغيرها ومنه: «إن التزاوج الرائع الذي يؤسسه سارتر بين الأدب والفلسفة هو تداخل حتى بين الإحساس والإدراك بين التلمس والوعي. وهو إحساس لن يفهم

²⁸ - سيمون دي بوفوار: الوجودية وحكمة الشعوب، تر: جورج طريشي، دار الأدب، سنة 1962 م، ص 122.

²⁹ - نبذ تيكروتشييه، علم الجمال، تر: نزيه الحكيم، م: بديع، دمشق، سوريا، سنة 1963 م، ص 53.

³⁰ - المرجع نفسه، ص 53.

على الإطلاق إذا لم يتضمن تقدماً باستمرار نحو الإدراك والوعي. وهذه العلاقة البالغة التعقيد. كانت نهج سارتر في تغييره الممتاز عن أزمة العصر³¹، فالمزوجة أن سارتر مزج بين الأدب والفلسفة؛ أي أن الأدب يعبر عن أزمت الإنسان والكوارث المفجعة وأن الحياة عبث ومصادفة، وأنه محكوم على الناس أن يعذبوا بعضهم إلى ما لا نهاية.

عبر سارتر عن أفكاره وفلسفته الوجودية في روايته "الغثيان"، فالوجود هو الحقيقة الأولى التي يكشفها القلق والتساؤل عن معنى الوجود الذي يميزه العبث والعرضية، فالوجود عبث عرضي لأنه موجود.

لسارتر عدة روايات وضعها في معنى الوجود مثل رواية الغثيان التي تكشف لنا أحداثاً دراما فلسفية، كان بطلها أنطوان روكونتان، إنسان مثقف، تراوده تساؤلات ميتافيزيقية، تقلت منه حريته، فيشعر أن وجوده زائد وغير لازم، ومشكلة روكونتان تتمثل في: «أنه لا يجد سبب للحياة فالعالم لم يمنح له شيء يعيش من أجله»³²، هذه الرواية هي كشف لمعاناة إنسان وحيد فقد طعم الحياة، ولم تعد لديه رغبة في العمل، كما أنه لا يستطيع فعل أي شيء بخصوص نفسه؛ لأنه وحيد لا يمكن فهمه لأن الإنسان لا يعرف كيف يرى نفسه وكما يبدو لأصدقائه،

كما أن لسارتر مسرحية مسماة بـ "لا مخرج" حيث أن أحداث المسرحية تدور في الجحيم، وهذا الجحيم عبارة عن غرفة مؤتثة بأثاث إمبراطوري، تحتوي على ثلاث أرائك، لكل شخصية أريكة، وهذه الشخصيات الثلاثة يعلمون أنهم جاءوا إلى الجحيم، وكل منهم يندش عند دخوله الحجر لعدم وجود نيران مشتعلة، أو آلات التعذيب، وفي النهاية يكتشف حقيقة أنهم معذبون، فهذه المسرحية لا يحتاج الرجوع إلى فلسفة سارتر ليتجاوب معها؛ لأنها تعبر عن مبادئ التي طرحها سارتر في كتاب الكينونة والعدم، وهذه الجلسة السرية في الجحيم مجرد حيلة مسرحية عقدت بسبب أن أحد الموضوعات الرئيسية للمسرحية هو الدينونة، وبهذا تكشف الجانب الآخر في موضوع الخلاص.

³¹ - جان بول سارتر: ما الأدب، تر: محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، سنة 1984 م، ص 132.

³² - جان بول سارتر: سارتر بين الفلسفة والأدب، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار مكتبة الحياة، بيروت، سنة 1981 م، ص 29- ص 30.

كتب سارتر مسرحية " الأيدي القذرة" ففي فحوى هذه المسرحية نجد أن هناك شاب شيوعي يدعى هوقر من الطبقة المتوسطة، يرسله حزبه ليقتل أحد زعماء الحزب الذي يكون متحالفا مع سياسة الملكية والأحرار، حيث أن هودور كان يبيع العمال للطبقة الحاكمة القديمة، وسارتر يؤكد هنا على شخصين متباينين هما: هوقر، هودور ليصل إلى اعتدال في فلسفة السياسة، فربط الشعور بالمسؤولية بهوقر، ويبين الابتعاد عن الأخطار في شخصية هودور على رفض ما فرض عليه، فهي مسرحية تتضمن سخرية مريرة.

كما تعد مسرحية الذباب تحريرا منقحا لأسطورة يونانية قديمة " أورست في أرغوس"، ففي مسرحية سارتر يعود أورست إلى الأرغوس مع أحد أقربائه فيكتشف أن والده في يوم من الأيام كان ملكا على هذه المدينة، وقد أصيب بالذباب، فيؤكد هنا على أن الحرية التي يجب أن تكون في مجال الاجتماعي فهي تحكي قصة الاضطراب والتوتر الذي يصيب النفس الإنسانية، وتنتج من خلال الكذب.

يعد ألبير كامي **Albert camus** (1960 - 1913)، من أهم رواد العبثية وتظهر مقولة العبث كأساس للأخلاق الكاموية في مؤلفين هما: الغريب ، أسطورة سزيف، ففي رواية الغريب يجسد ميرسو دور الإنسان العبثي الذي لا يهتم بالموت، ففي بداية الرواية يتحدث عن موت أمه وكأن الأمر لا يعنيه، فيقول: « اليوم ماتت أمي وربما أمس»³³، تستمر الصورة العبثية للسلوك والتفكير مع هذه الشخصية المحورية، فقد قضى الليل مع جثمان أمه في إحدى الصلات وشغله شكل الصالة، كما أنه أخرج سيجارة وأخذ يدخن أمامها وهو شبه سعيد؛ لأن امه لم تنهره كعادتها عن التدخين، وتظهر قمة العبثية عندما يقتل عربيا، يتصور أنه سيدخل للسجن وسيخرج بعد أيام، ولكن يبدو أن القضاء يأخذ مجراه فيحكم عليه بالإعدام، كما أنه كان يتمنى لو يحضر شنقه جمهور غفير يملؤه الحقد والكراهية، كما أنه رفض استقبال الكاهن لما أتاه من أجل أن يحضره للشنق بعد أن يتمنى آخر أمنياته.

وحسب رأي إسراء مقدم أن أكثر ما لفت نظرها في رواية الغريب هو " العنوان "، والذي لم تفهمه إلى أن وصلت إلى النهاية من هو الغريب؟ وما هو دوره في الرواية؟ وللإجابة عن تساؤلاتها كان لابد من الانخراط في الأحداث حتى الصفحة الأخيرة، فتخرج

³³ - ألبير كامو: الغريب، تر: محمد آيت حنا، منشورات رواية بغداد، بيروت، ط1، سنة 2014 م، ص 7.

إسراء باستنتاج، وهو أن مشكلة ميرسو تكمن في عدم أخذه للحياة على محمل الجد، لا يبالي بشيء على الإطلاق، ولا يبالي بوفاة أمه، إنها عبثية كبرى تأسس عليها فكر كامو نفسه.

كما نجد العبث جلي في رواية أسطورة سيزيف، حيث كان سيزيف أعقل الناس، قضى عليه الآلهة بأن يستمر أبداً في إصعاد صخرة إلى قمة الجبل، فلا تلبث، فبمجرد وصولها أعلى القمة حتى تسقط من تلقاء نفسها، فيضطر سيزيف على إصعادها من جديد، ويقال عليه عوقب بهذا العقاب لأنه استخفّ بالآلهة، وأفشى أسرارها، فإن أسطورة سيزيف هي أسطورة تدل على الاجتهاد والمثابرة والاستمرار فهي نموذج على الصبر وقدرة التحمل.

المبحث الثالث: الوجودية والأدب العربي

إن التيارات الأدبية تيارات متواصلة ترفض فهي في ديمومة مستمرة تتلاقح مع تيارات فكرية أخرى تؤثر فيها و تتأثر بها و تضمن بقاءها، وما الأدب الوجودي سوى حجة تفند الاعتقاد الزاعم أن عهد الفلسفة قد ولى، وقد أثبتت الوجودية الحديثة أنها فلسفة القرن العشرين بدون منازع، وذلك لما لقيته من رواج و ذيوع تتخطى الحدود الأوروبية ليصل إلى الوطن العربي و يغدو أهم تيار يغذي أدبه الحديث، وقد غزا هذا التيار المشرق والمغرب العربيين، لاسيما بعد النكسة العربية 1967، إذ وجدت فيه الأجيال العربية ما يعبر عن قلقها و ضياعها و آمالها في تحقيق شخصية مستقلة و حضارة جديدة، وقد تأثرت الرواية العربية دون وعي منها أحيانا بالوجودية الغربية، وخير مثال على ذلك السيرة الذاتية لجميل حسين البرغوثي "الضوء الأزرق" والتي تتجلى فيها دراستنا.

المطلب الأول: أثر الوجودية في الأدب العربي

يوضح لنا "أحمد عبد الحليم" في كتابه "سارتر و الفكر العربي المعاصر" على لسان "عبد الكبير الخطيبي"، كيف سيطر سارتر على الفكر العربي القديم حيث تمكن من السيطرة على وجدان وعقل وعاطفة العرب فيقول: «كلما كتب سارتر يكتب عنه و كلما زاد سعينا للإمساك به انفلت و هاهو يحلق مثل طائر ثمل قضي عليه، بأن يطير في السماء مثلما حكم على آخرين بأن يحفروا في الأرض، إنها إرادة قوة لا تتفك تترك قراءها انتباها»³⁴، وهنا نجد أن سارتر يشغل منذ زمن بعيد فكر العرب واهتماماتهم ولاسيما كتاباته التي تتدخل في طريقة عيشنا.

كان سارتر وجوديا ملحدا وهذا ما فتح له المجال أمام الحرية المطلقة و على حريته انجذب له العقل العربي المقيد تحت السيطرة الدينية و الاجتماعية و العرفية فيقول: «فمن منا لم يكن يحس في أعماقه بتضامن مع سارتر؟ لقد كنا نلحق معه عندما يلق و نهيم عندما يهيم، يا لها من لذة؟ كانت تلك اللحظات الممتازة التي نستشعر فيها ذبذبة التاريخ في جسمنا فتجعلنا نبذل طاقنا»³⁵. ومن خلال هذا نجد أن العرب أو المفكرين العرب تأثروا بسارتر و كتاباته عن الوجودية وبذلوا جهودا كبيرة في فهم ما يسعى إليه من تطبيق وممارسة كل ما يجول في خاطره، ألا وهو

³⁴ - أحمد عبد الحليم، سارتر والفكر العربي المعاصر، دار الفارابي، بيروت، لبنان، طبعة أولى، سنة 2011 م، ص 9.

³⁵ - المرجع نفسه، ص 10.

التحرر من قبضة القوانين فيجسد حرّيته على الصّعيد الدّيني و الاجتماعي بالمسؤولية تجاه الغير بحيث تنتهي حرّيته عندما تبدأ حرية الآخرين.

إن العرب انجذبوا إلى فكر سارتر المطلق لما عانوه من مشاكل وأضرار على المستوى النفسي والاجتماعي، مختلفة المصدر برزت أكثر في النكسة العربية سنة "ألف وتسعمائة وسبعة وستون" فقد تجسّد هذا التيار من خلال السيرة الذاتية "الضوء الأزرق"، التي تناول فيها المشاكل التي عاناها الشعب الفلسطيني في تلك الحقبة، فيقول: «أما لماذا هذا الاهتمام فان تفسيره يتّضح في أن العرب وجدوا في كتابات سارتر ما يعبر عن معاناتهم و همومهم ... و لعلّ شيوع هذا الأدب في وطننا العربي معزوّ إلى أن الأجيال العربية الجديدة تجده فيه ما يشبه التعبير عمّا تعانيه منذ كارثة فلسطين»³⁶. و هنا نجد أن فكر سارتر خاصة و الوجودية العامة ، كان لهما الأثر البالغ في نفوس الأجيال الجديدة ، لتتحرك قريحتهم الأدبية وتحرر من القيود، لأنهم وجدوا فيه ما يعبر عن شعورهم و آمالهم.

إن الحرية هي الهدف الأسمى التي تسعى إلى تحقيقه النفس البشرية وخاصة العربية منها لما عانته من حروب متوالية من خلال ما حقّقه سارتر، فيقول: «لقد قاوم سارتر احتلال فرنسا من أجل حرّيتها وكانت الحرية محور فلسفته، التي عرفها العالم عنه... ومن هنا التقت أفكاره ومواقفه مع طموحات الشعوب الساعية للتحرر»³⁷، فالفيلسوف سارتر كان من أشدّ المدافعين عن الحرّية إبان الاحتلال، ومن أبرز محاوره الفلسفية التي وجدها العرب، إنها الغاية التي كانوا يبحثون عنها من خلال مواقفه و أفكاره التي تدعو إلى التحرر.

المطلب الثاني: أثر الوجودية في الرواية

الرواية كجنس أدبي قد بلغت تطورا ونضجا فنيا على ثلثة من الروائيين العرب، الذين تأثرت أفكارهم وتوجّهاتهم، نتيجة تشبّعهم بالفكر الفلسفي الوجودي، محاولين النهوض بها إلى مستوى النضج شكلا ومضمونا من خلال رواياتهم و سيرهم، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية : «إن التفاعلات الاجتماعية و الفكرية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية دفعت المفكرين إلى البحث عن أشكال تتسع لاستيعاب المضامين ذات الأصول الفلسفية في مختلف الأجناس الأدبية و خاصة الرواية التي أخذت تنزع نحو أشكال وأنماط جديدة... وهذه الأشكال التي احتضنت

³⁶ - أحمد عبد الحلّيم، سارتر والفكر العربي المعاصر، ص 11.

³⁷ - المرجع نفسه، ص 13.

التجارب الجديدة و المفاهيم السائدة تتمثل في الوجودية، والرمزية و الرواية الجدية «³⁸. ونستنتج من خلال هذا القول أن الرواية كجنس أدبي عرفت ازدهارا واضحا من خلال نزوعها إلى أنماط جديدة محدثة ثورة على الواقعية بأشكالها المتعددة.

أولا: سهيل إدريس نموذجا

ومن أبرز الروائيين العرب نجد سهيل إدريس الذي نلتمس في رواياته مواطن الأثر الوجودي، بحيث يعتبر وجها من الوجوه الرائدة في مجال الرواية، و تأتي ثلاثيته في طبيعة الأعمال الأدبية ذات المستوى الفني، وتعتبر لونا من أدب السيرة الجزء الأول منها بعنوان "الخدق الغميق" ونأخذ نموذجا منها «انه طريق طويل هابط لعله شق يوما من الأيام خندقا من خنادق الحرب ثم حُول إلى شارع، و كان يهبط الخندق الغميق مع صببية بزهو و خيلاء حتى يشرفوا على شارع رئيسي كانوا... لم يجرؤوا يوما على اقتحام أسواره فقد كانت تقوم المدينة الكبيرة التي كانت محرمة عليهم»³⁹، ونستنتج من خلال هذا القول أن الخندق الغميق هو الحي الذي يقيم فيه الفتى و أسرته الواسعة، وهو يبعث في ذهن الفتى أفكارا و أحداثا تشعره بالاشمئزاز نتيجة الأحداث التي وقعت معه من قبل، وبعدها تأتي للجزء الثاني بعنوان "الحي اللاتيني" وهي الحلقة الثانية في ثلاثيته من حيث الأحداث و الوقائع، وبعدها تأتي الحلقة الأخيرة التي اكتملت بعنوان "أصابنا التي تحترق"، ويعتبر من أكثر الروائيين تأثرا بالتيار الوجودي وتوظيفها في رواياته.

ثانيا: محمود المسعدي نموذجا

ضف إلى ذلك نجد "محمود المسعدي" الروائي التونسي من خلال روايته السد التي في جوانبها متاهات يستعصي توضيحها؛ لأنها تغوص في قضايا الوجود: «تقوم رواية السد على كثير من الموضوعات الفلسفية التي أراد لها المسعدي أن تتقل كاهل الإنسان في هذه الحياة، في شكل صراع وهموم وإحساس و بالضياح، ثم إيمان بالخلق والتصدي و بالفعل والحياة والفكر، كل ذلك

³⁸ - عمري جميلة أمينة، تجليات المذهب الوجودي في رواية "يوم رائع للموت" لسمير قسيمي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الآداب و اللغة العربية، كلية الآداب واللغات، قسم الآداب و اللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2015-2016 م، ص 37.

³⁹ - بوشيبة الطيّب، الوجودية في الرواية العربية المعاصرة في بلاد الشام، سهيل إدريس نموذجا، أطروحة لنيل درجة دكتوراه الدولة في الأدب المقارن، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2011-2012 م، ص 61.

في مجرى الزمن الذي يكسح كالطوفان وجود الإنسان⁴⁰ ، ونفهم من معنى هذا القول أن الرواية "السد" في معناها البعيد هي تجسيد لصراع الإنسان بين الوجود والعدم، والحياة والموت.

ثالثاً: نجيب محفوظ نموذجاً

يعتبر الروائي المصري "نجيب محفوظ" ، من الروائيين الذين أثرت فيهم الفلسفة الوجودية بشكل كبير، كونه فيلسوف خسرته الفلسفة وكسبته الرواية العربية بحيث أحدثت الرواية "أولاد حارتنا" التي تقع في منتصف أعماله، إثارة حفيظة الأوساط المتدينة و المحافظة وأكثرها جرأة في تناول الذات الإلهية وهذه الرواية ستسرد لنا حياة الأنبياء من وجهة نظر نجيب محفوظ ، ومدى الظلم الإلهي الذي حل بالبشر، ويبدأ هذه الرواية بقصة شخص يدعى "الجبلاوي" - وهو الله- اشتقه من كلمتين الأولى "الله" والثانية من "الجبلة" الذي يرمز للعلو و الشموخ ويظهر ذلك من خلال الرواية فيقول: «من أهون الأبوة عليك، خلقت فتوة جباراً فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جباراً، و نحن أبناءك تعاملنا أما تعامل ضحاياك العديدين»⁴¹، وهنا نرى أن نجيب محفوظ صور لنا شخصيات روايته بالله و أنبيائه وعكس أسماءهم و صورهم بصورة منافية للدين الإسلامي وهو ما دعت إليه الوجودية بإذابة الذات الإلهية في الذات الإنسانية.

⁴⁰ - بوشيبة الطيّب، الوجودية في الرواية العربية المعاصرة في بلاد الشام، سهيل إدريس نموذجاً، ص 111.

⁴¹ - نجيب محفوظ، أولاد حارتنا، دار الشروق، سنة 2006م، ص 6.

الفصل الثاني: التجربة
الوجودية عند البطل في سيرته
الضوء الأزرق

الفصل الثاني: التجربة الوجودية عند البطل في سيرته الضوء الأزرق

المبحث الأول: البطل والأزمة السياسية

المطلب الأول: تحليل الشخصيات الافتراضية

المطلب الثاني: سيميائية المكان

المبحث الثاني: شخصية حسين في السيرة

المبحث الثالث: الإله في الضوء الأزرق

المبحث الأول: البطل والأزمة السياسية

تحدث حسين عن الوضع الفلسطيني في سيرته الضوء الأزرق، بحيث أخذنا معه بخيالنا لإلقاء نظرة على طفولته وشبابه وكيف قضاها تحت قبضة الاستعمار، فمن خلال سيرته رسم لنا لوحة فنية عن حياته في تلك الفترة؛ لوحة بالأسود والرمادي فيها طريق وعرة مليئة بالضباب، مصير ومستقبل مجهولان، والطريق معلقة دون عمد تتأرجح يمينا ويسارا قد تهوي به للقاء في أية هزة، اعتمد في كتابته على الخيال بشكل واسع وممتد؛ للتعبير عما يجول في خاطره من أمنيات، أو محاولة السيطرة على الوضع الفلسطيني في خياله يقول غاسلون باشلار: «المتناهي في الكبر في داخلنا. وهو متصل بنوع من تمدد الوجود الذي تكبته الحياة ويعيقه الحذر، ولكنه يباشر فعله حين تكون وحيداً. بمجرد أن نقبع ساكنين فاننا نعيش في مكان آخر، نحلم في عالم واسع. ان المتناهي في الكبر هو حركة الانسان الساكن. انها احدى الخصائص الدينامية لحلم اليقظة الساكن»¹، عاش حسين نوع من الفراغ النفسي الذي دفع به إلى تنشيط خياله، فكل الأحداث التي عاشها كان حسين يحاول أن يثبت وجوده من خلالها.

جسد حسين الأزمة الفلسطينية ونفسيته إبانها، وأوضاعه ورغباته في تلك الفترة بمجموعة من الأماكن والشخصيات الخيالية، وهذا ما يميز الكاتب الوجودي عن غيره من الكتاب، فهاته الأماكن والشخصيات تحتاج إلى تحليل وتفسير حتى نفهم دورها، وإلى ماذا تشير، وماذا يحاول حسين إيصاله من خلالها، كما أنه كل المؤشرات تشير إلى حبه وشوقه ولهفته للحرية وهذا ما يناضل من أجله الكاتب الوجودي، وهذا ما أكده نواف يونس في مقال له في كتاب السرد وأسئلة الكينونة في قوله: «وقد شكلت الحرية محورا رئيسا في الرواية العربية المعاصرة التي تحمل في طياتها جهودا جبارة في طرح إشكالية الحرية وأزماتها وانعطافاتهما، ولا نكاد نقرأ رواية من المحيط إلى الخليج دون أن نلمس هاجس الحرية يبرز بشكل واضح في القضايا السياسية والاجتماعية والفكرية...والحرية عند سارتر ليست

¹ - غاسلون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، لبنان، ط 2، سنة 1984م، ص 171.

صفة خارجية عن الإنسان بل هي صميم وجوده»²، وهذا ما دفع حسين للكتابة عن حريته المسلوبة من قبل الاستعمار.

المطلب الأول: تحليل الشخصيات

تحدث الكاتب في سيرته الضوء الأزرق عن موضوعات مختلفة، وأبرزها حالته النفسية قبل وإبان الاستعمار، كما وصف مدينته رام الله والوضع السائد في فلسطين أيامها، ولكن كما يتضح لنا بعد قراءة لسيرته أنه أزاح الستار عن خياله وجعله مسرحية بشخصيات وهمية، وهذا ما سرح به محمود درويش في مقدمة هذا الكتاب فيقول: «...استحضر الكاتب شخصيات هامشية وحياة مجانية تبحث عن معناها العبثي...»³، لأن الشيء الذي يميز الكاتب الوجودي هو توظيف الرمز، فما يتحدث عنه ليس بالضرورة كلها أشياء أو شخصيات أو أمكنة حقيقية، وإنما قد تكون من ضرب الخيال، فهو يريد أن يوصل فكرة معينة من خلال ذلك الرمز.

كما ذكر حسين ذلك من خلال سيرته لما أزاح شخصية من خياله قال: «اختقت تلك البنت السوداء بلا أثر في اليوم التالي، و لم أرها أبدا. في عالم الهامش»⁴، وهذا دليل على أن الشخصيات التي ذكرها حسين من وحي خياله؛ إذن هي رموز مشفرة ولا بد من تفكيكها فقد يكون لا يقصد بها الأشخاص في حد ذاتهم وإنما إشارات فقط، فكل شخصية تشير حسب دورها إلى شيء معين، فهناك من الشخصيات ما تعكس الاستعمار الإسرائيلي في صفاتها ورؤيتها كما أن هناك شخصيات أخرى تعكس روح المقاومة الفلسطينية وطموحاتها، فشخصية زرقاء اليمامة نوع من هذه المقاومة، وكأن حسين يريد أن يصبح بقوتها، ويرى ماذا يخفي الاستعمار الصهيوني بعد في حق الشعب الفلسطيني.

اهتم الكاتب باللون الأزرق، حيث وقف عند كل شيء أزرق فحلله وفق العديد من المذاهب الدينية مثل حديثه عن اللون الأزرق بالنسبة للطائفة الصوفية النقشبندية، فهذه

²- السرد وأسئلة الكينونة. بحوث مؤتمر عمان الأول للسرد، 10/12/2012 م، جمع وإعداد حاتم بن التهامي الفطناسي،

الجمعية العامة للأدباء، ط1، كتاب دبي الثقافية 77، دار الصدى، سنة 2013 م، ص 106.

³- حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط3، سنة 2010 م، ص 7.

⁴- المصدر نفسه، ص 23.

الطائفة خصصت لكل نفس لون معين، فكان اللون الأزرق يمثل النفس الأمانة بالسوء، فأكد حسين أن نفسه كانت تأمره ليس بالسوء فقط وإنما أكثر من ذلك⁵.
فيشير حسين هنا إلى مدى غضبه الثائر على الاستعمار، فكان يريد أن يواجه المستعمر ويأخذ بثأر أرضه المغتصبة.

اختار حسين العديد من الشخصيات المختلفة الخيالية في الشكل، اللون، المبادئ، الديانات، الجنسيات، وكل هذه الشخصيات تشير إلى شيء يريده حسين أن يصل إلى مفهومنا كما هو في مفهومه، من بين هذه الشخصيات رجل أسود التقى به عند مدخل محل الألعاب، فذلك المكان لا يدخله إلا البيض أما السود فقليلا ما يدخلوه فقال حسين: «أن السود نادرا ما يأتون إلى هذا المحل الضخم الأبيض وإن قدموا تلبستهم فكرة أنهم "سود"»⁶
اختار حسين العبد الأسود ذو أصول إفريقية، في مدينة ذات أصول غربية "سياتل"، للدلالة على عدم الإنتماء، وسهولة التفريق بينهم وبين البيض، لأن السود كانوا مجرد عبيد عند الغرب، هذا فيما يخص اختياره للإنسان الأسود، أما اختياره للمكان للدلالة على أن العبد الأسود لا ينتمي إليه، لأن ذلك المحل كان في مدينة سياتل والمدينة غربية، والأسود عند دخوله له يتذكر بأنه أسود، فحسين يشير إلى أن المستعمر مهما ضربت جذوره في القدم وتوغلت لم ولن يكون من أصول فلسطينية، وهو يعلم ذلك كما يعلم الأسود أنه مجرد أسود بين البيض، ولن ينتمي إليهم في يوم من الأيام، بالرغم من أن العبد الأسود دخل على الغرب من وهلة اكتشافه، إلا أنه يبقى ذو أصول إفريقية.

وفي حوار له مع بنت سوداء حول الأصول والجذور، عدّها لها الأصول التي يمكن للعربي أن ينتمي إليها، أما هي فحدثته عن أصولها التي لا تستطيع أن تتعايش معها إن مازالت موجودة، وهي العبودية في مزارع القطن، كما حدثته عن الزعيم الأسود "مالكوم أكس" الذي قال بأن الله أسود، وهو لم يقل هذه العبارة عبثا، وإنما لقلّة حيلته و ضعف موقفه في إثبات جذوره، وبهذا الحديث يشير حسين إلى الفكرة الإسرائيلية التي تزعم أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله.

⁵- انظر: حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 14.

⁶- المصدر نفسه، ص 22.

أولاً: شخصية جوني

جوني شاب التقى به حسين في خياله، في مدينة سياتل، حدّثه عن أمه التي قتلها رجال الفضاء، هنا اختار حسين الأم بدل الأب لأن الديانة اليهودية - الحالية - متعلقة بالأم، إن كانت الأم يهودية يمكن للمرء أن يعتقها، وإن لم تكن الأم كذلك لا يستطيع، أما رجال الفضاء فيقصد بهم ديانتهم ومعتقداتهم التي لا صحة لها، وهي من وحي خيالهم، كما هي قصة رجال الفضاء من خياله، يقول حسين: «جوني: إنسان بلا مكان كون لنفسه هوية "متخيلة": رواية عن فقدانه لأمه، وعن صلة فقدانه بمخلوقات خضراء»⁷، وبهذا يؤكد حسين على ما قاله بخصوص الشاب، فقله إن جوني بدون هوية يؤكد على أنه يقصد الصهيونيين الذين ألفوا أساطير فيما يتعلق بجذورهم، وأصلهم، وديانتهم، كما أنه يؤكد في حديثه عن الشاب جوني على أنه: «كائن خفيف: لا يحمل تاريخاً»⁸.

بمقابل هذا الوصف الذي منحه لجوني شرع في التحدث عن جذوره هو، فقال: «أما مواليد برج حوض البحر الأبيض المتوسط من أمثالي، فهم ورثة الثورة الزراعية واستتلاف الماشية في العصر الحجري...ولدت في قرية، و بابل ومصر إرثي، أما أشكال جوني، فلا ذاكرة لهم إلا "المدن الكبرى" الحديثة لا يعرف ولا يسمع بشيء يدعى "قرية" أو فلاحين الحضارة الأمريكية البيضاء مثل جوني بلا تاريخ يذكر خفيفة التاريخ في البحر المتوسط عميق وثقيل»⁹. وهنا يؤكد حسين على قدم عرقه وأصالته منذ العصر الحجري، كما تحدث عن الحضارات القديمة التي يمكن للإنسان العربي أن ينتمي إليها، ويعود بأصله لها، فقارن تاريخه مع تاريخ جوني الذي يقصد به الشعب الإسرائيلي، بأنهم لا ذاكرة عندهم، أي لا تاريخ يعودون بذاكرتهم إليه، وأنهم لم يعرفوا قط القرية والفلاح، اللذان هم رمز على القدم والأصالة، وأنهم حديثو النشأة، كما هي المدن الكبرى الحديثة، كما أشار للحضارة الأمريكية التي هي الداعم الأساسي للقوى الإسرائيلية كذلك هي الأخرى بلا تاريخ، فوصفها بالتاريخ الخفيف، والصفحة البيضاء التي لم يسجل عليها التاريخ أي شيء، ويبين أنها حضارة اليوم تريد أن تغتصب ما هو موغل في قدم تاريخ العرب.

⁷ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 24.

⁸ - المصدر نفسه، ص 25.

⁹ - المصدر نفسه، ص 25.

ثانيا: شخصية صديق جوني

لقد اختار حسين شخصية جوني للتعبير عن إسرائيل، ولقد أضاف في عالمه الهامشي لجوني صديق ألماني، وهنا يشير إلى العلاقات الألمانية الإسرائيلية، فيقول صديقه: « هذا المحل يبيع جنس و تخيلات»¹⁰، وهنا قد يكون يشير إلى العلاقات الإقتصادية التي تربط الدولة الألمانية بالشعب الإسرائيلي، فإذا حللنا هذا القول من هذا المنظور سنجد أن العلاقة كانت جد متوترة، بل كانت شبه مستحيلة بينهما، بسبب الهولوكوست (عمليات القتل الجماعي التي نفذها النازيون بحق ستة ملايين يهودي)، ولم يجمعهما أي علاقة سوى الجانب الإقتصادي، حيث قدمت ألمانيا لإسرائيل عام 1952 3.45 مليار مارك، وبعدها أصبحت ألمانيا تعتبر هي الشريك التجاري الأكبر لإسرائيل في أوروبا، وثاني أهم شريك لإسرائيل بعد الولايات المتحدة الأمريكية.

وبعدها يستتق حسين صديق جوني في عالمه الهامشي فيقول: « الحواف متوترة». " أية حواف ؟ " ، " الحواف على جانب السياج الذي يفصل العاديين عن المشردين ! "،¹¹ وهنا يقصد حسين بالحواف متوترة العلاقة بين ألمانيا وإسرائيل، كما ذكرت سابقا، فبسؤاله أية حواف؟ هنا يريد شرح أية حواف ليوضح الآتي " ...الذي يفصل العاديين عن المشردين " وهذا ما يريد حسين إيصاله، لأنه يقصد بالمشردين الشعب الإسرائيلي، بينما العاديين الشعب الفلسطيني.

ثالثا: شخصية سوزان

هي فتاة كما وصفها حسين في مقبل العمر، محطمة ووحيدة بدون أم ولا أب ولا صديق، شبهها بقايا حركات الستينيات الثورية، فيقول: « سوزان. حطام امرأة من بقايا حركة الستينيات الثورية، مريضة، ووجهها ناضج»¹² هنا حسين يشير بسوزان إلى الحركات الثورية في الستينيات بحيث قامت عدة حركات ضد القوى الاستعمارية، لكن مقاومتها باءت بالفشل بعد فترة زمنية قصيرة، إلا أن هاته الحركات كانت تبدو وكأنها أقوى مما هي عليه حقيقة، كما هو الحال بالنسبة لسوزان كما وصفها حسين مريضة ووجهها ناضج، مثل "حركة فتح"

¹⁰ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م ، ص 25.

¹¹ - المصدر نفسه، ص 26.

¹² - المصدر نفسه، ص 26.

بقيادة ياسر عرفات التي تأسست سنة 1958م، كانت هاته الحركة في أول الطريق صامدة متصدية للعدوان الصهيوني، إلا أنه فيما بعد أوقفت المقاومة ضد إسرائيل وخسرت معظم مقاعد المجلس التشريعي الفلسطيني، وهذا ما يقصده حسين بالحطام، كما برأيه أن هذه الحركات لم تأتي بفائدة على الشعب الفلسطيني، وأن جل هاته الحركات لم تحظى بدعم من الدول العربية وذلك بتحذير من الولايات المتحدة الأمريكية بعدم التدخل أو بتهديد من طرف إسرائيل بالقصف، وهذا ما جعل حسين يشبه سوزان بـ: «لا حبيب ولا أم ولا أب ولا أصدقاء»،¹³

فيكمل وصفه لسوزان على أنها لا تعرف أحدا ولا تملك شيئا إلا دفترا أبيض، ترسم عليه طاووسا أزرقا ولا ترسم غيره، فالدفتر الأبيض يمثل حياة بسيطة خالية من المشاكل كأى حياة يحظى بها أي إنسان، يريد حسين حياة يرسم عليها ما يشاء كما هو الدفتر الأبيض، أما الطاووس وكل رسم متعلق بالطيور حسب علم النفس هو الشخص الذي: «يجب مساعدة الآخرين والدفاع عنهم وحمائتهم...غالبا ما يكون حساس ومعبّر ويجب الهدوء وراحة البال واحساسه بتواجده في الحياة قليل»¹⁴، فمن خلال تفسيرنا للرسم حسب علم النفس يتضح وبدون تفسير ما يبحث عنه حسين، وما هي الأشياء التي ينادي بها، وخاصة "إحساسه بتواجده في الحياة قليل"، فهاته العبارة كافية لتوصل لنا ما كان حسين يعاني منه، عاش حسين هاته العبارة بسبب الاستعمار والحرب، فحلم أنه سيموت يلاحقه في كل لحظة ولهذا قلّ لديه الأمل في الحياة، كما أن اللون الأزرق الذي تلون به سوزان الطاووس فهو يشير إلى الاستقرار والأمان والثقة والراحة النفسية، وهذا ما كان حسين يحلم به، كون تحقيقه في أرض الواقع صعب المنال بالنسبة له ولأي مواطن فلسطيني، فمن خلال الطاووس ولونه الأزرق يطلعنا البرغوثي على حلمه، وإن كان هذا الحلم من حقه ومن حق أي شخص.

¹³ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 24.

¹⁴ . مصلح القحطاني، أكاديمية علم النفس، السعودية، سنة 2009م، <https://acofps.com/vb/4549.html>

رابعاً: شخصية بري

بري هو الشخص الذي اختاره حسين في معظم أحداث السيرة، مثل حسين من خلال شخصية بري كل أنواع اللامبالاة والتشاؤم من الحياة، وكأن حسين رسم من خلال هاته الشخصية شخصيته، عبّر من خلالها عن التشرد وعن مدى تقززه من طعم الحياة، لم يسأم حسين من الحياة لولا هاته الظروف القاسية التي حلت على رأسه وشعبه وأرضه، كان حسين يجسد هذا الإحساس في كل جملة له في السيرة، كما أن تمثيله بهاته الشخصية لا يخلو من رمزية الأزمات السياسية التي مرّت بها الدولة الفلسطينية، وكذلك قدّم حسين حلول لنفسه من خلال شخصية بريّ للخروج من دائرة الحزن التي كادت تهوي به إلى الجنون بسبب ما عاشه على يد المستعمر.

خامساً: شخصية ماري

ماري هي زوجة حسين أمريكية الجنسية، منفصمة الشخصية، وبدوره يمثل بها الدولة الأمريكية التي هي عملة ذات وجهين، فهي الممول الأول والرئيسي لإسرائيل، حيث أنها تقدم لها العون على جميع الأصعدة، وفي نفس الوقت هي الدولة الحاضنة للمنظمات العالمية لحماية حقوق الإنسان وحقوق الطفل، وهذين التيارين يستحيل أن يجتمعا، وهذا ما مثله حسين بانفصام الشخصية، فيقول حسين: «زرت مع ماري المستشفى الذي تتعالج فيه، وفي ممراته المضاءة، والنظيفة، وفي صالات استراحة بتلفزيونات ملونة وزهور اصطناعية، رأيت بشرا، إن جازت التسمية أصلاً»¹⁵، فبوصفه للمستشفى ذاك ما ينطبق على الولايات المتحدة الأمريكية، وصورتها أمام باقي الدول، أما ما يحتويه المستشفى من مرضى ذلك ما ينطبق على ما تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية لصالح إسرائيل.

تحدث حسين عن حاكم إسرائيل يدعى "مناحيم ميلسون" وهوسه بالسيطرة والحكم على الضفة الغربية، فيقول حسين بخصوص هذا: «تتناوشه مثلي وساوس عن فقدان صلته ب"الواقع". وهوسه ب"الواقع"، وتقارير المخابرات، والأوامر، يلزم لإدارة وحكم "الضفة الغربية" كلها، ليس إلا للبرهنة لنفسه أنه لم يزل على صلة ب"الواقع". ولكن هذا الواقع مثل الماء بين أصابعه، وينزلق منه باستمرار وكلما انزلق الواقع أكثر، زادت مخاوفه»¹⁶، حسين يقول أن

¹⁵ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 91.

¹⁶ - المصدر نفسه، ص 98 - ص 99

هذا الحاكم من أجل أن يبقى على الخط يريد احتلال الأراضي الفلسطينية، ولكن حسين أكد له أنه إذا كان متمسك بالواقع من خلال فلسطين فهذا صعب، وهذا ما شبهه حسين بالماء بين الأصابع، إلا أن حلمه لم ينحصر في الضفة الغربية فقط وإنما تعدّ إلى الهيمنة على الضفة الشرقية والزحف للأراضي الأردنية، يقول حسين: «نهر الأردن خيط حرير يشق المكان إلى "ضفتين": غربية وشرقية. ومناحيم ميلسون يحكم الغربية فقط، وهناك ضفة أخرى تنزلق من بين يديه باستمرار»¹⁷، إن هذا الحاكم عمل على نشر السلام بين إسرائيل وبعض الدول المجاورة العربية، وذلك بغية التوصل إلى إقامة دولة أردنية فلسطينية مشتركة، مع العلم أن الضفة الغربية ضُمَّت للأردن عام 1951م، ولكن إسرائيل احتلتها عام 1967م، وظلت الأردن تعتبرها قانونياً وإدارياً أراض أردنية محتلة، حيث تشكل أراضي الضفة الغربية الجزء الأكبر مساحة من الأراضي التي اصطلح على تسميتها الأراضي الفلسطينية المحتلة، التي تضم الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية وقطاع غزة، يقول حسين: «ولو اختفى نهر الأردن نفسه، ولو قضمه الأرنب البريّ، لاخفتت ضفتاه، ولما عرف مناخيم نفسه "شرقه من غربه"»¹⁸، فحسين يتخيل لو أنه لم يكن نهر، ولم تكن هناك ضفة غربية وشرقية، لم يكن هناك احتلال.

المطلب الثاني: سيميائية المكان

كل إنسان يصنف حسب المكان الذي ينتمي إليه، بحيث الأرض والوطن هما المكون الرئيسي لهوية كل شخص، وهاته السمة لما فقدتها حسين تركت فجوة وفراغ ظاهر في حياته، فتحدث عن عدة أماكن في سيرته وهي السينماتك وأسمائها في عالمه الهامشي "الوهم العظيم"، وكذلك المقهى أطلق عليها "المخرج الأخير"، والحانة أسماها بـ"القمر الأزرق"، من خلال هاته التسمية نلاحظ أنه يشير فقط بهذه الأماكن ولا يقصدها بالتحديد، كما أنه لم يعطي لخياله بالنسبة للمكان حدود جغرافية بل جال عبر أقطار العالم من خلال خياله: «علينا أن نلاحظ في البداية ان مصطلحي "الخارج" و"الداخل" يطرحان مشكلات أنثروبولوجية ميتافيزيقية غير متماثلة. أن نجعل الداخل محددًا والخارج شاسعًا هي المهمة

¹⁷ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 98

¹⁸ - المصدر نفسه، ص 98

الأولى، بل المسألة الأولى - فيما بعد- لأنثروبولوجيا الخيال»¹⁹، فهذا ما عمل به حسين حيث أنه جعل عالمه الهامشي الخارجي أوسع بكثير من عالمه الداخلي النفسي. السينماتك، اختار حسين هذا المكان لأنه المكان الوحيد الذي يسع خيال الإنسان، خاصة وأنّ حسين اعتمد في سيرته هاته على الخيال -العالم الهامشي-، بحيث السينما هي المكان الذي من خلاله يستطيع المرء أن يجسد حياة لا صحة لها في الوجود، حيث تعد السينماتك المحرك الأساسي للسيرة؛ كونها قائمة على الخيال، وهذا ما خلفه الاستعمار الصهيوني في نفسية حسين، حيث أصبح يتخيل أشياء وأشخاص لا وجود لهم، فيجسد حسين من خلالهم عالمه الخاص، فمنهم من جسد من خلاله الحرية وآخر القوة وغيرهم السعادة، فكل مكان كان حسين يتخيله وكأنه موجود، فلولا الاستعمار لكان حسين عاشها بدل أن يتخيلها.

من خلال هذه النافذة أطل حسين على أحلامه التي لم يصل إليها من خلال الحقيقة، كما أنه يجسد من خلالها مخاوفه التي كانت تراوده في صغره، فيقول حسين: «دائماً كنت أتخيل نفسي في واد في جبال طفولتي ولون الوادي أزرق غامق والصخور زرقاء غامقة»²⁰، وهنا كان حسين قد مثل لنا من خلال سيرته أحد أدوار طفولته التعيسة، خاصة وأنه تخيل نفسه في جبال طفولته التي اشتاق لها، فيحكي عنها كطفل أخذت منه لعبته قسراً. كما أنه اختار السينما من أجل كتابة سيناريو أحلامه التي لم تتحقق له في يوم ما، كانت أحلامه وكأنها وهم بالنسبة له، فقال: «كل حياتي وهم صغير»²¹ ولذلك جسدها على مسرح السينما وأسماها "الوهم العظيم"، كانت له أحلام كأبي طفل وكأبي شاب لكن المحتل لم يسمح له بعيشها وممارستها، يقول حسين: «يا إلهي كم أصبح العادي طموحاً، أحياناً، كنت أحلم بسماء عادية، بأن أنام فقط فوق عشب أخضر تحت الشمس، قرب المحيط، وأغفو»²²، هذا ما دفع به إلى تخيلها بدل من عيشها، حتى أنه استصغر حلمه الذي هو من حقه مقارنة بالسينما بينما أسمى السينما الوهم العظيم.

¹⁹ - غاسلون باشلار، جماليات المكان، تر غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، لبنان، ط 2، سنة 1984 م، ص 194.

²⁰ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 14.

²¹ - المصدر نفسه، ص 26.

²² - المصدر نفسه، ص 184.

وفي السينماتك يوضب حسين أغراض خياله، فاحتل مكان آخر ركن من أركان السينما وهو "المقهى"، رسم لها حسين لوحة جميلة في خياله ممزوجة بالحزن والقدم والكتابة، فقال: «مقهى صغير له درج صغير، وحول السقف، من الخارج، مظلة استحالت من المطر والزمن إلى خشب كالح فيه تمتزج الزرقة والخضرة بالرمادي، وتحتها، أعني المظلة، مقاعد من خشب أشد كلاحه وقدا. وعلى مقعد كهذا، منه تبدو خيوط المطر مثل قضبان الزنزانة»²³، لا يخلو خيال حسين المسجد في السيرة من الإشارة إلى همومه والاحتلال، فمن خلال مقهى عالمه الهامشي نستنتج ما يحاول حسين إيصاله لنا، فمثلا المظلة يشير بها حسين إلى الحماية فحسين كان بحاجة إليها، أما الخشب الكالح فيشير به إلى مدى تعبته ولون نفسيته الباهت نحو كل شيء، وكذلك بالنسبة للمقاعد الكالحة التي ملّت جلوسه عليها، كما أنه هو أيضا ملّ من الجلوس، بحيث أنه يريد التغيير ولكن هذا التغيير يفوق قدرته، وهذا ما عاد عليه بالأزمة النفسية التي يعيشها في سيرته، أما عن المطر فهو شبهها تشبيه واضح وصريح كقضبان الزنزانة، وبالإجمال نلاحظ نظرتة الكئيبة لكل شيء، لأن المقهى مكان يقضي فيه الإنسان وقت معين للراحة، إلا أن حسين عكسهم حتى راحته مصابة بالملل والحيرة، وهنا تبدأ ملامح الوجودية بالظهور على حسين في ضوءه الأزرق.

أما الحانة التي أخذت اسم "القمر الأزرق" في عالم حسين الهامشي، فإذا جننا لتحليل اسم القمر فهو يدل على الشخص الذي له علاقة أو يهتم بعلم التنجيم حسب تفسير علم النفس، وهذا ما سنلاحظه في السيرة عندما يلتقي حسين بالعجوز التي تقرأ كف اليد، وقد يكون حسين يريد التطلع على ما تخبؤه له الأيام من مفاجآت، بعدما سئم من انتظار التغيير، وقد يدل على الاضطراب النفسي، وهذا يظهر عندما يحاول حسين تذكير نفسه في السيرة بأنه إنسان عاقل، وكذلك عندما يشك في صحة توازنه العقلي، ففي علم النفس «قد انتهى الدكتور رافيتز إلى تفسير ذلك بالقول أن القمر لا يؤثر مباشرة في سلوك الإنسان. لكنه يستطيع بتغيير نسب القوى الكهرومغناطيسية في الكون، إحداث كوارث عند الأشخاص غير المتوازنين»²⁴، وهذا ما كان حسين يحذر منه طيلة السيرة، بحيث أنه كان يخاف من أن يصاب بالانفصام، وترتكب نفسه خطيئة لا تدري عنها النفس الأولى.

²³ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، ص 26.

²⁴ - نبيل محسن، علم النفس الكوني، دمشق، <https://acofps.com/vb/4549.html>

أما بالنسبة للون الأزرق كما ذكرنا معناه سابقا أنه هو اللون الذي يحمل معنى الحزن والعزلة والبرود، وهذا ما كان حسين يعاني منه، فالقمر الأزرق هو الحانة التي يذهب إليها حسين من أجل نسيان مشاكله التي يحملها القمر حتى يصبح باللون الأزرق.

هذا فيما يتعلق بالأمكان التي كان حسين يتردد عليها في خياله من أجل نسيان همومه في القمر الأزرق، أو مشاهدة بعض من أحلامه على مقاعد السينما، أو تذكر ماضيه الكالح في المخرج الأخير، وبهذا نكون قد أخذنا لمحة عما كان حسين يريد إيصاله لنا من خلال أماكنه الثلاث، أما فيما يخص البلدان والمدن وكل الأماكن التي ذكرها حسين في سيرته سنرى ماذا يقصد من خلال كل واحدة منهم.

كما أن حسين ذكر بعض الأماكن الهادئة والخلابة عكس ما كان يصف به الأماكن السابقة، أماكن كان يحتاجها حسين في الواقع لا في الخيال، كان بحاجة إلى الراحة النفسية من خلالها، كما أنه يرمز بها إلى الاستقلال والحرية، فيقول في وصفه لأحد منازل أصدقائه: «نزلنا في جزيرة صغيرة فيها غابة أصغر منها منظر إلهي...بيت جميل من الخشب»²⁵، حسين هنا كان يصف في البيت وهو متلهف على أن يعيش هاته اللحظة حقيقة لا في الخيال، كما أنه لم يصفه كالمنازل الضخمة بل كان بحاجة إلى بيت يأويه من الاضطهاد الصهيوني، هو وجميع العائلة الفلسطينية، كون حسين اعتبر نفسه هو الممثل الرئيسي لشعبه من خلال سيرته، وهذا ما أكده غاسلون باشلار في كتابه جماليات المكان: «يجب أن أبين أن البيت هو واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات وأحلام الانسانية. ومبدأ هذا الدمج وأساسه هما أحلام اليقظة...فبدون البيت يصبح الانسان كائنا مفتتا...البيت جسد وروح، وهو عالم الانسان الأول. قبل أن "يقذف الانسان" في العالم»²⁶، فهدف حسين يتوافق وكلام غاسلون عن الحنين إلى عالمه الأول الذي يأويه.

ولقد امتد تأثير حسين بالوضع السياسي حتى بالوضع السائد في لبنان آنذاك، تحدث عن القوات الإسرائيلية وكأنها بحر، بحر هائج يتعدى حدوده ليدخل حدود اليابسة، حيث دمر وقتل وأغرق شعبها -بيروت- وشوارعها وعماراتها، فيقول البرغوثي: «وتغرق بيروت في الزبد والزرقة المتلاطمة والهدير، شارعا شارعا، أبنية تهوي، وأخشاب تطفو، وغرقى، وفي

²⁵ - حسين جميل البرغوثي. الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 38.

²⁶ - غاسلون باشلار. جماليات المكان، تر غالب هلسا. المؤسسة الجامعية، لبنان. ط 2، سنة 1984 م، ص 38.

وسط الدمار وحش هائل الحجم، الـ"كينغ كونغ"، الذي كنت رأيته في فيلم في "سينما كارمن"، يسحق الأبنية بقدميه كدمى من الكرتون، وأمي تتلوى في يده، وهو يمسك بها من خصرها، ويرفعها إلى زرقة السماء، ولا تغلت منه، فأستدير وأهرب، أهرب نحو الجبال في "عاليه"، أو نحو جبال الأرز الشهيرة في لبنان، بل نحو جبال طفولتي في رام الله. وينتهي الكابوس دائماً هناك»²⁷، وكل كلمة باح بها حسين هي وصف لحرب لبنان سنة 1982 وتسمى أيضاً بعملية الصنوبر، وهي حرب عصفت على لبنان فتحوّلت أراضيها إلى ساحة قتال بين منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا وإسرائيل.

و ترجع أسباب هذه الحرب إلى العديد من الأحداث التي جرت في الشرق الأوسط؛ خلال السنتين التي سبقتها من إتفاق القاهرة الذي نظم وجود الفصائل الفلسطينية المسلحة في لبنان إلى الحرب الأهلية اللبنانية، وهذا ما شبهه حسين بالدمية التي أمسكت من خصرها، قامت إسرائيل باحتلال جنوب لبنان بعد أن هاجمت منظمة التحرير الفلسطينية والقوات السورية، وحاصرت منظمة التحرير وبعض وحدات الجيش السوري في بيروت الغربية، فانسحبت منظمة التحرير من بيروت بعد أن تعرض ذلك القسم منها إلى قصف عنيف، وفي عام 2000م انسحب الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان وهذا ما وصفه حسين بـ: «والبحر هادئ، لا حمامة نوح ولا غصن زيتون»²⁸.

إن حسين يرصد لنا أخبار عن وطنه وكيف تسير بعض الأمور فيه، حيث أنه سيصاب بالجنون نحو بعض الأشياء المستفزة؛ مثل ما سبق ذكره عن الولايات المتحدة الأمريكية؛ كيف تضرب الشعب الفلسطيني يمينا وتقبله يسارا، فيذكر لنا بعض من هذه الأعمال: «وتذكرت كيف تقوم "وكالة الغوث الدولية" بتوزيع "المؤن" على اللاجئين الفلسطينيين في "أكياس" مكتوب عليها "تبرع من..الولايات المتحدة»²⁹، وهذا ما يُشعر حسين بالاشمئزاز والرغبة في الغثيان على هذا النوع من الأفضة المكشوفة، كما صرّح أنه يشعر بنوع من فقدان الكرامة نحو هذا النوع من التبرعات، فيوضح لنا شعور ينتابه كأنه يقبل اليد التي تصفعه، وهذا ما شبهه حسين بـ: «أنكيدو، في "ملحمة جلجامش"... هذا فقد

²⁷ - حسين جميل البرغوثي. الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 45.

²⁸ - المصدر نفسه، ص 45.

²⁹ - المصدر نفسه، ص 119.

قوته حين ضاجع عاهرة مقدسة عند النبع البري»³⁰، لقد أشبه قوة الشعب الفلسطيني بقوة أنكيديو، وضعفه حين ضاجع امرأة بقبول تلك الإعانات التي تسلب قوة الشعب الفلسطيني، أما العاهرة وفي نفس الوقت مقدسة فهو يشير بها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، التي هي من أكثر الدول عداءً لفلسطين ولكن مقدسة لدى جميع الدول، فبتلك المساعدات كسبت أمريكا ثقة طبقة من الشعب المغفل الفلسطيني، الذي أضحى يتاجر بدم بقية الشعب مقابل بضع لقمات تسد الأفواه الفاعرة.

إن حسين لم يكن يعاني من أزمة فلسطين فقط وإنما دخلت على أزمته أزمة لبنان كما سبق وأشرنا إليها، وكذلك أزمة الحروب الأهلية التي تدل على ضعف الشعب وانفكاكه وعدم وحدته، يقول حسين: «واشتريت... لعبة أطفال عسكرية كاملة تليق ببلد لا يستطيع العيش دون حرب أهلية كل عدة سنوات»³¹، فحسين هنا يشير إلى الحروب الأهلية الفلسطينية، من بينها حرب تطهير العرقي لفلسطين 1947-1948، وهي حرب أهلية بين المجتمعين العربي واليهودي في فلسطين، أدت إلى اندلاع حرب 1948، وتعتبر المرحلة الأولى من حرب فلسطين، امتدت من 30 نوفمبر 1947 وهو تاريخ تصويت مجلس الأمم المتحدة لصالح إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، وخطة الأمم المتحدة للتقسيم إلى تاريخ إنهاء الانتداب البريطاني نفسه في 15 ماي 1948، خالفا لتغيير حادا للتوازنات، وإعلان الحركة الصهيونية لدولة إسرائيل، وتحولت المواجهة لما يعرف بالحرب العربية الإسرائيلية، ومن آثارها: «مجازر في بلدة الدويمة فقد استولت على البلدة سرية تابعة لكتيبة الكوماتدوس التاسع والثمانيين وبعد قتل الأطفال ساق الجنود اليهود النساء والرجال إلى منازلهم كالتقطعان حيث أبقوهم دون طعام وبلا ماء ومن ثم عهدوا إلى تفجير المنازل بمن فيها من المدنيين اليائسين»³²، ومن بين هذه الحروب حرب "أيلول الأسود"، وهو الصراع الذي نشب في الأردن بين القوات المسلحة الأردنية بقيادة الملك حسين، ومنظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات في المقام الأول بين 16 و 27 سبتمبر 1970، مع استمرار

³⁰ - حسين جميل البرغوثي. الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م ، ص 120.

³¹ - المصدر نفسه، ص 151.

³² - ميخائيل بالميو. كيف طرد الفلسطينيون من ديارهم عام 1948، دار الحمراء، ط 1، بيروت، سنة 1990م،

بعض الأعمال حتى 17 يوليو 1971 بعد أن فقد الأردن السيطرة على الضفة الغربية لإسرائيل عام 1967، نقل المقاتلون الفلسطينيون المعروفون باسم الفدائيين قواعدهم إلى الأردن، وصعدوا هجماتهم على إسرائيل والأراضي المحتلة، وكذلك معركة غزة 2007 كان صراع عسكري بين حركتي فتح وحماس من أجل النضال حول السلطة بعد أن فقدتها حركة فتح في الانتخابات البرلمانية عام 2006، ونجح مقاتلون حماس في السيطرة على القطاع.

المبحث الثاني: شخصية حسين في السيرة

حسين شخصية فلسطينية عانت وإن كانت حية لزالمت تعاني من سلب الحرية من قبل الصهاينة، عاش حسين هذا الدمار على المستوى النفسي أكثر منه على المستويات الأخرى، كونه درس خارج بلاده، كتب سيرته هاته ومعظم أحداثها وشخصياتها من وحي الخيال، حيث جعل أحلامه أحداث تجري على خشبة مسرح وهمي، كان يتخيل لو أنه يقدم أو يجد حلا لبلاده ولشعبه من خلال شخصيات أو أمكنة معينة، استخدم الرمز بكثرة كما هو الحال للكاتب الوجوديين، حتى يسرد علينا مدى معاناته التي لم يشارك بها أحد والتي كانت تنخر أحشائه، حيث أنه عبّر عما كان يعيشه داخليا في سيرته بطريقة مختلفة شهد لها محمود درويش، فهو كان يبحث عن ذاته من خلال السيرة بطريقة مختلفة فقال غاسلون باشلار: «وإذا أردنا تحديد الوجود الإنساني، فلن نستطيع التيقن أبدا من كوننا قد اقتربنا من "أنفسنا" حين "ننسحب" داخل ذواتنا. لن نستطيع التيقن من أننا نتجه إلى مركز الحلزونية، لأنه كثيرا ما يكون الوجود ضيلعا ونحن في قلب الوجود ذاته»³³، فهذا ما كان يعاني منه حسين من تشتت وضياح داخل الوجود، فهو يحاول أن يثبت وجوده داخل الكون.

بدأ حسين سيرته بذكر بعض الأمكنة الخيالية جسد من خلالها مدى تأثره بالأحداث التي كانت تعيشها فلسطين، التي قمنا بتحليلها في المبحث السابق، وهي السينماتك والحانة والمقهى، كما ذكر حسين اللون الأزرق فقال: «القمر الأزرق» اللون تحديدا جذبني»³⁴، ولم يتوقف الأمر عند جذب اللون الأزرق لحسين بل أصبح حسين يلون ما يشاء بالأزرق، والدليل على ذلك عنون سيرته بالضوء الأزرق، كما ذكر زرقاء اليمامة كذلك، فاللون الأزرق يمثل في علم النفس مايلي: «اللون الأزرق من أكثر الألوان شعبية وانتشارا في العالم فهو يعبر عن الاستقرار، والأمان والثقة وقد يدل أحيانا على مشاعر البرود والعزلة، والحزن»³⁵، وهذا ماكان حسين بحاجة له، وما يتمنى وقوعه في أرض الواقع خارج قوقعة خياله.

كما وصف حسين بعض من مشاهد طفولته التي عاشها بالأسود والأبيض، طفولة جد تعيسة، شاقة مليئة بالثغرات التي قد تهوي به إلى الموت، كانت نظرتة لطفولته نظرة

³³ - غاسلون باشلار، جماليات المكان، تر غالب هلسا. المؤسسة الجامعية، لبنان. ط 2، سنة 1984 م، ص 194.

³⁴ - حسين جميل البرغوث، الضوء الأزرق، دارميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 13.

³⁵ - غدير خالد، دلالات الألوان في علم النفس، سنة 2018، <https://mawdoo3.com>.

كئيبه خالية من الأحلام الوردية التي يتميز بها كل طفل عن آخر، كان ينظر لطفولته وكأنها رسم بدون تلوين، خالي من البهجة، بحيث أخذنا معه في رحلة عبر عالمه الهامشي لنلقي نظرة على طفولته، فوصفه لطفولته جعلنا وكأننا عشناها معه، فيقول: «دائما كنت أتخيل نفسي في واد في جبال طفولتي، ولون الوادي أزرق غامق، الصخور زرقاء غامقة»³⁶، فمن خلال هاته اللوحة وصف لنا حسين طفولته التي لم يعيشها كأبي طفل كان في عمره، فحسين في وصفه لهاته الفترة استخدم الأزرق الغامق أي كل ما يرمز إليه هذا اللون من حزن وقلة الأمان فحسين هنا يؤكد على أضعافه المضاعفة في هذا السن.

كما أن حسين عبر عن فقدانه للأمان من خلال طيور بلده، التي لم تعد تدل طريقها من شدة الخوف وعدم الوثوق في الناس من كثرة ما يحدث على الأراضي الفلسطينية، فيقول حسين في وصفه لطيور بلده: «نزل طائر وقف على أصابعي وأخذ ينقر الخبز بأمان، كعادة التي لم تعرف الإنسان جيدا. عندنا، في فلسطين العصافير مصروعة، تفر من أي دليل على أية ألفة بينها وبين الناس»³⁷، فالبرغوثي هنا يوضح مدى قلقه وخوفه وقلة ثقته فيمن حوله، أصبح يهاب كل شيء ومن أي شيء، يحاول البحث عن مكان فيه أمان، وكل هذا بسبب ما عاشه أمام ناظريه من عنف، وقتل، ودماء، التي أصبحت تسيل بدل الماء، دماء أصبحت تسلك طريق المجاري من كثرت القتل على يد الصهاينة، وهذا ما جعله يعيش هذا النوع من الفزع.

كان حسين يعاني من تشتت وضياع داخلي بسبب ما عاشه وهو يفكر في مستقبل شعبه وموطنه؛ وهو بعيد عنهم بحكم الدراسة في سياتل، وهكذا تكتمل الصورة البشعة التي كان يرسمها حسين كل يوم بقلم المعاناة تحت القبضة الاستعمارية، فيقول حسين: «كنت أبحث عن منطقة طقسها معقول، وقت نفسي، ولترتيب فوضاي»³⁸، فحسين كان يعيش نوعا من الشرود العقلي والعاطفي، شرود عن الحياة وعن العالم بأسره.

كان حسين يشعر دائما وكأنه سيُجنّ، وأنه لم يبقى له في ساحة العقل الكثير، حسين بحاجة لعقله ولكن التفكير في الجنون لم يتركه وشأنه، فيقول حسين بخصوص جنونه: «منذ

³⁶ - حسين جميل البرغوث، الضوء الأزرق، دارميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 14.

³⁷ - المصدر نفسه، ص 39.

³⁸ - المصدر نفسه، ص 10.

زمن وأنا أعتقد بأنني سأجنّ..أحرق في المرآة...وأقول لنفسي "ابق على الخط"³⁹، حقيقة ما كان حسين يعيشه يستدعي الجنون، بلد مستعمر، حرمان منهوكة، حرية مسلوقة، القتل وزهق الأرواح في كل مكان؛ وخاصة أن حسين مات له أخ وهو صغير وهذا ما زاد حالته سوء.

أفلت حسين بجميع الخيوط الوهمية التي كان يتمسك بها للوصول إلى أحلامه؛ التي لا تزال حبرا على ورق، كما أنه سئم المقاومة في خياله، إلا أنه لم يستسلم بسهولة بل جميع الطرق تؤدي إلى نفس النقطة، وهي ماضيه وحاضره المرير ومستقبله المجهول، حيث أنه أباح بذلك من خلال السيرة فقال: «كان وكأن قدرا ما يوجه خطاي نحو أمكنة دائما تبدو كمصيدة، نحو الأمكنة الخطأ، حتى شعرت بأن حياتي كلها مجرد انحرافات متوالية عن "حسين الحقيقي" عن حياة من المفروض أن أعيشها، ولكنها تغلت مني باستمرار»⁴⁰، ففي آخر تصريحه يلوم الواقع على الحياة الذي منحه إياها، فحسين من بين أسطر كتابته ينوح على حياته التي لم يعشها قط، ياليتها لم يعشها من أصلها ولا كان عاشها بهاته الأقدار التي ترمي به يمينا يسارا.

كان حسين عقله مشوش خالٍ من التركيز، عقل لم يملك زاوية واحدة لإيجاد حل أو مخرج معين، بل يدور كعقارب الساعة يفكر يمينا و يسارا، يعود إلى الخلف ليتذكر الماضي ويسير قدما ليجد مخرج من هاته الحياة، حيث أشار حسين إلى كيفية عمل عقله من خلال الحادثة التي رواها لنا جرت له مع "دون"، حيث أتى هذا الأخير وأعطاه حلقة خشب فيقول حسين: «...هذه هي العقل..دائرة من ثلاثمائة وستين زاوية، وبين كل زاوية وأخرى زوايا لانهاية»⁴¹، وهنا يوضح أنه له عقل لا يستطيع التحكم فيه من خلال كثرة التفكير والأفكار، لم يترك حسين العقل ذا ثلاثمائة وستين زاوية فقط بل زاد عليه بين كل زاويتين زوايا أخرى لتزداد عنده مساحة التفكير واختلاف وجهات النظر، كما سبق لحسين ووصف عقله بكاميرا عدستها غير مضبوطة.

³⁹ - حسين جميل البرغوث، الضوء الأزرق، دارميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م ، ص 10.

⁴⁰ - المصدر نفسه، ص 33.

⁴¹ - المصدر نفسه ، ص 36.

وهنا يغير حسين موجة كلامه من العقل إلى التاريخ، فقد رمز في كلامه عن هذا الأخير بالنفايات، حيث شبه التاريخ الذي لم يستقر إلى حد الآن بالنفايات، ولا جدوة لوجوده أو ذكره، وأحيانا يحول الأشخاص المعنيين بهذا التاريخ أيضا إلى نفايات، ولا أهمية لوجودهم في ساحة الواقع لطالما أنه لم يتمكن واحدا منهم إثبات وجوده ووجود الآخر، فيقول حسين: «... فلم يكن يكنس الشوارع بل ينتقي قممات معينة... أعني أن التاريخ يترك الناس بلا شيء يفعلونه بتاريخهم»⁴² على حسب ما قاله حسين لم يكن لديه تاريخ جدير بالذكر، ولم يكن حافل بالانتصارات، فحياته تمثل سلة مهملات تحوي مسودات الواقع.

كان حسين يجسد أحواله النفسية في شخصيات مختلفة في عالمه الهامشي، وأغلب صفة طغت على دُمَاه هي صفة الغرابة، والتصرفات غير المفهومة كالتشتت والضياع، وهذا ما كان حسين يعاني منه آنذاك، فكل جملة في السيرة هي حاملة لمعنى الوضع السياسي، وهذا الأخير ما جعل حسين يعاني من كل هاته الهواجس والأمراض النفسية، فحسين لم يجد ما ضاع منه من طمأنينة وحرية وسلام أينما ذهب، لجأ إلى لبنان ولكن لحق به "البحر"، فالإلى صفات التشتت والضياع التي وصفها حسين أضاف إليها اللامبالاة والتصرفات الغريبة؛ وكأنها مستوحات من مسرحية "الذباب" لجان بول سارتر، كما تتقاطع في عدة نقاط مع مسرحية "في انتظار غودو" لسامويل بكيت، وصف يشعرك بالعبثية والغرابة وذلك يتجسد من خلال حركاتهم، فيقول حسين: «حرق في نقطة في خياله، خائفا، وكأنه يرى شبحا، وأرجع رأسه إلى الوراء كمن يريد أن يبتعد عن شيء خطر، ثم أغمض عينيه مرتين بسرعة فائقة، وهز رأسه كمن يطرد بعوضة، وفرط ضاحكا»⁴³، فهذه الحركات غريبة على أن يقوم بها شخص سليم ولم يتعرض لأي فعل من أجل أن تكون هذه ردت فعل له، وكذلك تتجسد من خلال الأقوال فيدفع حسين بشخصياته لقول جمل غير مفهومة؛ وكأنه يريد إيصال فكرة أنه بحاجة إلى الكلام ولكن لا يمكن لأحد أن يفهم ما يعيشه، فيقول حسين: «يا رجل هناك كائنات مرحة في الداخل أكثر مما في الخارج»⁴⁴، بالإضافة إلى التعويذة التي كان يستعين

⁴² - حسين جميل البرغوث، الضوء الأزرق، دارميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 40.

⁴³ - المصدر نفسه، ص 50.

⁴⁴ - المصدر نفسه، ص 50.

بها بري: «بيور بري أوم، أومني بدها أوم»⁴⁵، وتمتد هاته الصفات لتصل إلى الهيئة الخارجية للشخصيات، فيقول حسين في وصف إحدى الشخصيات: «يقفل أزرار قميصه حتى آخر زر حول رقبته التي تبدو طالعة من القميص عندها كرقبة فرخ بط، على وجهه تعبير دائم من الدهشة، وكان يعتقد بأنني عبقرى، ويقفل عينيه عندما أتكلم لكي "يركز".»⁴⁶، فحسين هنا يصف الفوضى التي بداخله، فهو ينقل لنا فكرة أنه حالة تتعالج وتشفى بحصولها على هدفها، وهدفه يستحيل تحقيقه وتبقى حالته مثل الدائرة التي رسمها بري: «رسم دائرة في دفتر كنت أحمله، وظل يكرر نفس الرسم حتى لم أعد أرى إلا بقعة رصاصية واحدة»⁴⁷، فبضبط هذا ما كان حسين يعيشه، حياة حلقة مفرغة، التاريخ يعيد نفسه، النفسية بقعة سوداء بسواد قلم الرصاص.

كثيرا ما تحدث حسين عن إعمال العقل، وأطال الحديث في إيجاد حل لأزمته، كما أنه وارى أعصابه التالفة في الدهاليز المظلمة والمؤدية إلى مستقبله، إلا أنه في بعض الأحيان يفتح المجال أمام قلبه فيقول: «العقل في خدمة السيدة» و"ماهي السيدة؟" "القلب"⁴⁸ عمل حسين على إعمال عقله على طول السيرة إلا أنه لم يستطع إخفاء الجزء العاطفي منه، كما أنه حرص على أن يكون جزء بسيط من السيرة فقط، ففي قوله هذا يبين أن ما قد يفعله وينبه عنه العقل فهو من إنتاج القلب.

ويقول حسين بخصوص التغيير الذي لا بد من تحقيقه في أرض الواقع إلا أنه عاجز عنه كونه بمفرده، كما أنه يحث على عيش ما هو خيالي على أرض الواقع، فيقول: «هذا المقهى كان حلما في خيال صاحبه! وبناء. والآن نحن نلعب الشطرنج في داخل حلم صاحب المقهى، في دهاليز حلم سابق»⁴⁹ حسين شخص طموح يحاول دائما أن يطبق أحلامه، وقد سرح بهذا سابقا فبتمثيله هذا يوضح ما كان في كل مرة يحاول تأكيده وهو تحقيق الأهداف، فمن بداية السيرة وحسين يتحدث في نفس الموضوع بطرق مختلفة، فالتكرار

⁴⁵ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م ، ص 56.

⁴⁶ - المصدر نفسه، ص 51.

⁴⁷ - المصدر نفسه، ص 54.

⁴⁸ - المصدر نفسه، ص 62.

⁴⁹ - المصدر نفسه ، ص 61.

هنا يفيد الإصرار والتأكيد على ما يحاول حسين قوله، وهو تحقيق النصر الذي بات مجرد حلم مركون في زوايا خياله.

سبق لحسين وتحدث بطريقة عبثية مثل مسرحية الذباب كما ذكرت سابقاً، وكان ذلك مجرد استنتاج أو تشبيه، أما الآن فقد رسم لوحة أسماها باللوحة السريالية وبتصريح منه قائلاً: «نصف الشعر حليق، والنصف الآخر مصبوغ بلون ناري وأزرق، أو كل الرأس بلا شعر ماعداً خط يشبه "عرف الديك" مصبوغ بألوان فاقعة، برتقالية أو صفراء وبنفسجية، وهكذا.. لوحة سريالية»⁵⁰ وهنا بدأ حسين ينزع ستار الغموض حول ما كان يشير إليه سابقاً، فقد صرح حسين عن مدى تضارب آرائه وأفكاره، فحسين في نفس الوقت وحول نفس القضية قد يكون له عدة آراء، وهذا ماتحدث عنه في بداية السيرة على أنه خائف من أن ترتكب نفسه الأولى جريمة لاتدري عنها نفسه الثانية، فهو أحياناً يؤمن بالتغيير وأحياناً أخرى يرى أنه لاجدوى من التغيير، وأن كل شيء سيبقى على حاله، ففي حوار له مع صديقه سوزان يقول: «أهلاً بك في نظرية رقم واحد" وماهي نظرية رقم واحد؟". ضحكت وقالت: "أولاً أنا وثانياً أنا وثالثاً أنا، إلى مالا نهاية"»⁵¹، فهو في حديث له في السيرة يشبه شخصيته بعدة أشخاص مختلفة، تسعى دائماً وأبداً نحو التغيير، ولكن في النهاية هاته الشخصيات تتشابه فيم بينها في سعيها نحو هدفها، وهذا ماينطبق على شخصيته تماماً، في أنه مهما يحاول حسين من تغيير ففي الأخير يظل حسين ذلك يسعى نحو تغيير شخصيته بدل الواقع.

كما يبدو على حسين بعض اليأس تجاه حل أزمتة بسبب شعبه، فحسين دائماً يوجه كلامه لشعبه على أنه طاوي اليمين، فيقول: «نيويورك امرأة، سياتل بنت... لاتوجد في فلسطين مدن عربية تستحق اسمها، والنتيجة أنه لا توجد عندنا نساء بل بنات، ولايوجد رجال بل أولاد.»⁵² فحسين يبحث عن حل جذري للاستعمار، فبتشبيهه لمدنه وقراه بالبنات والأولاد لا بالرجال والنساء فهذا يدل على أنهم عاجزوا على تقديم ما يكفي لحل مشكلتهم، وإخراج المستعمر من أرضهم

⁵⁰ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م ، ص 67.

⁵¹ - المصدر نفسه، ص 67.

⁵² - المصدر نفسه ، ص 67.

تحدث حسين عن فراغ يملئ فراغه الداخلي، الذي هو نتيجة حياته التعيسة التي عاشها بسبب الاستعمار الصهيوني، عبّر عن فراغه بحرقة، وكان التشبيه كئيب وحقيقي لدرجة نشعر وكأننا في وسط فراغه نشاهد مدى شاعته، فيقول: «خلق في روعي فراغا جافا ومفتوحا وجبليا. لم أر الصحراء أبدا في الطفولة، ولكن "ذاكرة الفراغ الصحراوي" سكنتني عبر الشعر: البحر والصحراء والجمال والخيام والنخل والواحات... "زرقة بحر على حد صفرة رمل"، فراغ رملي وأزرق»⁵³، فهو يشبه لهفته على وطنه وشغفه على ترابه والحنين إلى نسمات هواء بفراغ على مدى نظر العين، وهذا ما شبهه بالصحراء أما البحر والفراغ الأزرق فيقصد به المستعمر وما انجر عنه من أضرار نفسية بالنسبة لحسين.

الوحدة والشعور بالغربة حالتان لم يتركا حسين وشأنه، فهو كان يقيم في سياتل بحكم الدراسة ولكن الحنين إلى أرض الوطن لم يغطه السلام الذي كان يعيشه حسين في تلك المدينة، فشبه حسين حالته هذه فقال: «عندما أدخل العرب أول نخلة إلى أوروبا، في الأندلس، سموها "الغريبة". كنت نخلة غريبة»⁵⁴، فحسين كتلة من المشاعر السلبية التي تتخر فؤاده ليل نهار.

إن حسين دائم الحزن على عجزه ويعتبره عتبة بينه وبين ما يتمنى وقوعه على أرض الواقع، حيث أنه يقول: «ما أتعس ذهنا لا يصغي لما هو خارجه، ولا يهدأ، ويشتبك مع نفسه»⁵⁵، فهو هنا حاله حال الجماد، فهذا ما توصل إليه حسين من خلال وصفه كونه لم يستطع تنفيذ ما يدور داخل ذهنه، كما أنه يوضح فكرة تشوش عقله بسبب الأوضاع السائدة، فيقول: «لقد نهشوا عقلك يا رجل، نهشوه... من هم؟». قال "هم، من يسكنون في ذهنك، خبراء النهش»⁵⁶ فحسين هنا يحاول أن يخبرنا بأن الضرر لم يلحق بما هو ظاهر فقط وإنما حتى ما هو باطن قد دُمّر من قبل الاستعمار.

⁵³ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م ، ص 69.

⁵⁴ - المصدر نفسه، ص 69.

⁵⁵ - المصدر نفسه، ص 70.

⁵⁶ - المصدر نفسه ، ص 70.

إن حسين يريد أن يعيش في أرض الواقع ما يتخيله لكنه لم يستطع، ولم يكن يعلم كيف، وهذا ما وضحه من خلال قوله: «سمكة ذهبية من طبيعتها أن تسبح في كل نظرية، كل تجربة، كل رأي، كل نوع من المعرفة...»

"وأين يسبح العقل؟"

"في نفسه: إنه الشلال والسمكة التي تسبح في الشلال هل فهمت معنى قولك "كن شلالاً وكن سمكة؟" ⁵⁷، فهو شبه التفكير والخيال والتخطيط نحو المستقبل بالشلال، أما السمكة فهي التنفيذ، ولذلك هو صرح بأن السمكة تستطيع أن تسبح في أي مكان، أما تشبيهه للتفكير بالشلال وذلك أنهما يشتركان في التدفق، فحسين يمتاز بالتفكير العميق والمستمر، وقوة الخيال وإتساعه.

كان حسين كثيراً ما يحن لطفولته السوداء؛ ولكن حديثه عنها قليل، كما أنه لا يبدي شوقه لها على خلاف هذه المرة؛ تحدث عنها وهو يعود إليها عبر آلة الزمن، فحدثنا عنها قائلاً: «نظرت من شباك الطائرة "تحت"، فرأيت أبنية حمراء، وبيضاء، وصغيرة...سيارات صغيرة وملونة، وأحببتها. وتخيلت بيروت "مدينة أطفال". وأردت أن أنزل فيها وألعب...مسنى عشق لمدينة أطفال سرية، لم يحدثني أحد عنها، ولم أحدث أحداً، كتمتها بيني وبينني، وأحببتها» ⁵⁸، فحسين هنا يتحدث عن طفولته وكأن لعاب شهيته لها يسيل، ودموع الجوع لها في أجفانه، والرعدة تحرك ذقنه الطفولي، وهو ينتظر حلم فات أوانه، حسين يتحدث عن طفولته كونها حلم لم يفت الأوان على تحقيقه، حلم بحث عنه كثيراً فقال: «وأبحث عنها. ولم أجدها في فيء الزيتون، ولا بين الأودية، ولم أرها حين كنت أحرق غرباً نحو البحر. كنت أركب "الباص"...وأجلس في جهته اليمنى...وأبحث عنها...وكننت أرجع فيه وأجلس في الجهة اليسرى، وأبحث عنها، ولم أجدها» ⁵⁹، حاول حسين أن يركض خلف حلمه لكن لم يستطع الإمساك به، لأن العدو ألقى القبض على طفولته سجنها خلف قضبان السلطة والتعسف والقانون الأسود.

⁵⁷ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 70.

⁵⁸ - المصدر نفسه، ص ص 83 - 84.

⁵⁹ - المصدر نفسه، ص 84.

كان حسين يشعر بالوحدة كونه يقيم في مدينة غريبة غريبة عنه وغريب عنها، أما الآن فهو يشعر بالغربة حتى في وطنه وبين أهله وشعبه، يقول حسين: « رجعت لزيارة أهلي في فلسطين... عز الظهيرة.. تراب رمادي يثور منه غبار حول خطاي. للناس جلد برونزي لفحته شمس المتوسط، وشعر أسود أو أشقر لامع، ملامحهم غريبة، ضحكاتهم، أسنانهم، وحتى اللغة العربية التي يتكلمون بها غريبة»⁶⁰، فحسين هنا يشعر بالوحدة والغربة حتى على المستوى النفسي، وهذا بسبب الاستعمار والسلطة الإسرائيلية التي باتت تشكل كابوسا لحسين في اليقظة، فيحكي حسين عن الزلزلة النفسية التي يعيشها داخليا، زلزة لم يسبق تسجيلها على سلم ريشر من قبل، حيث يصور كيف كان يعيش وكيف أصبح: « قبل هذه الزيارة كنت "أحن" إلى "وطن"، "وبيت"...كنت كمن يعيش في بلاد مبنية على ظهر حوت، فيها نخل، وبحارة، وأسواق ذهب...وفجأة، تحرك الحوت نحو الأعماق، وبدأ كل شيء يغرق، الفكرة عن "الثبات" غرقت. وكل عالمي صار بحرا أهوج لا سواحل له، يسكنه قراصنة على ظهر السفن»⁶¹، فهو هنا أصبح يفضل الإقامة في بلاد الغرب على أنه يقيم في فلسطين، فهو يوضح أنه كان يحن لوطنه بشكل عادي إلا أن المشكلة طالت وازداد تأثره بها وتأثيرها عليه.

كما أن حسين يوضح أنه لازال فيه جزء صالح يبقيه في عالم البشرية، ويبقى عقله سليم، فيشبه شخصيته بشخصية "بيير" الذي هو شخصية في رواية "حرب وسلام" فيقول: «قرأت "حرب وسلام"، وأحببت بيير هذا: يشبه شقة في حرب، يتكسر الدرج، وتحترق الشبابيك، وتتخلع الأبواب، ويبقى دائما في بيير جناح لم يمس بسوء، وصالح للإقامة. بيير هذا أحببته»⁶²، لطالما كان دائما يشك في بقاءه على الخط، وسلامة عقله من الجنون، فهنا يؤكد حسين أنه هناك ما يستدعي بقاءه في عالم العقل.

سبق ومات لحسين أخ صغير، يروي حسين عن طريقة قتل أخيه، وكيف دفن دون كفن، يحكي بطريقة جافة خالية من المشاعر، والآن جاء الدور على أبيه فيقول: « فعندما مات أبي في أواخر سبعينيات القرن الماضي، بجلطة في الدماغ...كل يلقي بنظرة أسي

⁶⁰ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م ، ص 86.

⁶¹ - المصدر نفسه، ص ص 87-88.

⁶² - المصدر نفسه ، ص 88.

عليه أو يقبله على جبينه. أختي...ألقت بنفسها عليه، وناحت...وجاء دوري. وجهه أصفر باهت، وفيه غضب قديم، وبياض شبحي ما، وبقع خضراء داكنة وغريبة بدت لي متعفنة...فوقفت كتمثال حجر...ولم أتحرك وقلت لنفسى لا أريد طعم الموت على شفتي»⁶³، إن حسين يزودنا بتفاصيل وفاة والده وكأنه يحكي لأحدهم قصة ما قبل النوم، حتى ألفاظه متعفن، شبح، بقع، غضب...وغيرها من الألفاظ التي كانت بشعة توحى أنه يصف كلب ميت على الطريق وليس والده الذي كان ممدد على النعش، هذه هي مشاعر حسين خالية أحيانا وأحيانا أخرى يعود نبض المشاعر والحنين إليه.

كان حسين يعاني من عدم التوازن الداخلي، وهذا بسبب عدم ثقته بمن حوله، أو يمكن القول بمن لجئ إليهم حسين وهزوا ثقته فيهم، فيمثل حسين هذا القول ب:«حلمتني في حانة من خشب...كانت تتأرجح فوق هاوية...تتأرجح بجنون لامبة كهربائية...والأثاث كله يتزحلق تحت المزاريب جيئة وذهابا...كلما تشبثت بشيء وقع»⁶⁴، كما نجد في قول له يلقي الذنب على تاريخه الذي لم يثبت نفسه أو لم يستطع الدفاع على بقاءه أمام باقي الحضارات التي أثبتت وجودها، فيقول:«مرة رأيت عرضا بهلوانيا صينيا...استغربت جماله وتوازنه، فقال لي صديق ما: "لماذا تستغرب يا حسين؟ هذه الثقافة الصينية تبحث منذ خمسة آلاف عام عن "توازنها"، هذا هرم يأتي من التاريخ"...من أين لي بالتوازن، أو بتاريخ متوازن يا بري؟ يا إلهي!...»⁶⁵، فهو هنا يقارن تاريخه مع باقي تاريخ الحضارات القديمة، التي أشرفت على توازنها والتي حافظت عليه من التصدع، هذا ما جعل حسين يصاب بالثشت النفسى لطلما تاريخه أيضا يعاني من هذا الثشت.

يحاول حسين أن يلقي بقضية بلده خلف ظهره ويمضي قدما نحو المستقبل، نتيجة الثشت الذي يعيشه الشعب الفلسطيني خاصة، والعالم العربي عامة، الذي لم يظفر جهوده مع الشعب الفلسطيني من أجل التغلب على الفيروس الإسرائيلي، فيقول حسين:« منذ سنين وأنا أحلم أن أترك كل شيء في حياتي...ولكن هناك نوعا من الناس، مثلي، لا يمكنه أن "يحسم" كل حياته...وقدره أن يبقى "مشتتا"، كالندى فوق العشب، بدل أن تتوحد كل قطراته

⁶³ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص ص 90-91.

⁶⁴ - المصدر نفسه، ص 101.

⁶⁵ - المصدر نفسه، ص ص 102-103.

لتكون جدولاً أو نهراً، وتحسم نفسها "باتجاه" ما، اتجاه واحد لا رجعة عنه ولا شك فيه.⁶⁶، فحسين بكلامه هذا يوضح أن لو كل العرب كانت على عهد واحد واتفاق واحد لكان مصيرنا واحد، ولكن كل شعب ينادي وطني وطني، وكل فرد من الشعب ينادي نفسي نفسي؛ إلا أن صدى عالمه الهامشي يدفعه على أن يعيش وحيدا يفكر بنفسه فقط: «لكل شخص رقصته مع الحياة يا رجل، ولا أستطيع رقص رقصتك معها»⁶⁷، كما أن هذا الصدى يؤكد عليه أن يرمي بماضيه في النفايات غير القابلة للتدوير؛ لأنه بسبب هذا الماضي حسين لم يعيش حاضره، وأخذ يفكر في مستقبله الذي هو ابن الماضي:

« ميز الذهن عن محتواه يا حسين؟... »

"وما الفرق بين الذهن ومحتواه؟..."

"ذهنك سعدان لدغته عقرب ماضيه، فصار ينط ويزعق: وع! وع! وع! وع! وهذا محتواه: زعيق قرد"⁶⁸، فحسين بحاجة لإخلاء سبيل ماضيه الذي هو حبيب الحاضر، حيث أن حسين لم يستمتع بما عاشه وبما يعيشه، وهذا ما وضحه في قوله: «ذهنك يشبه هذا الفنجان، مليء، أفرغه مما فيه، كي أصب لك شايا جديدا»⁶⁹، فحسين يريد جديد ما ليشغل به باله، لقد سئم مما هو قديم.

كما أنه أشار إلى حظه في هذه الحياة التي لم تمنحه فرص كثيرة، وكانت جاحفة في حقه، إلى درجة أن عقله لم يعد يستوعب من دروسها إلا القليل:

«الحياة نهر وكل يغترف منه بحجم فنجانة.. فنجانك صغير...»

"هل تسميه فنجانا إن كنت تستطيع أن تصب شايا فيه فقط، وليس قهوة أو عصير التفاح مثلا؟"...

"لأن من طبيعة الفنجان أن يكون فيه فراغ ما، ومن طبيعة الفراغ أن أستطيع أن أصب فيه ما أريد"⁷⁰، ففي قول حسين هذا العديد من الإشارات من بينها الإشارة إلى عقله الذي لم

⁶⁶ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 103.

⁶⁷ - المصدر نفسه، ص 104.

⁶⁸ - المصدر نفسه، ص 105.

⁶⁹ - المصدر نفسه، ص 106.

⁷⁰ - المصدر نفسه، ص ص 108، 109.

يعد يستوعب إلا ما هو محزن وكئيب، وكذلك إلى حياته التي أصبحت مطوقة بقيود تفكيره السلبي، فحسين يعيش الحصار من كل النواحي.

كان حسين يواجه كل يوم كاليوم الذي قبله دون أن يبوح بهذا لنفسه، أيامه أصبحت كأنها أغنية حزينة كئيبة مملة يرددها على مدى أربعة وعشرين ساعة، يقول حسين: «...هل ستقضي حياتك بين المقاهي؟» شعرت بوجع عميق في معدتي من كلماته، وجع عميق، لأنه قال حقيقة لا أريد أن أراها: كنت أقضي جلّ حياتي في المقاهي، في نهر تافه يدعى "الحياة اليومية"... أنني مدمن، أعني أحيًا تحت سطوة عادات فقدت سلطتي عليها وعلى تغييرها»⁷¹، يعني أن حسين هنا قد استيقظ من حلمه المتكرر هذا، فحسين لم يعتقله المستعمر لكنه اعتقل نفسه بالتفكير فيه، أغلق على نفسه قضبان السجن ورمى بمفاتيحه في قعر دوامة التفكير، أما الآن فقد أدرك حسين خلله ويريد أن يصوبه، فقال في حوار له مع بريّ: «ماذا أفعل؟»

"أن تفعل شيئاً يعني تغيير شيئاً" ⁷²، فحسين هنا لم يغير شيء بل مجرد أنه سأل عن كيف يتخلص من هذا الركود اليومي إلا أنه خطى خطوة لم يسبق له أن فعلها.

ومن هنا يبدأ حسين يوضح لنا طريقة تغييره نحو الأفضل رويدا رويدا، حيث أن صديقه بريّ طلب منه أن يفكك أفكاره ويصنفها ويميز بين الأفكار القديمة والحديثة، فانتبه حسين لهذه النقطة: «يا رجل! في كل ذهن تسبح الأفكار وتبقى نتف: بين الفكرة الأولى وبين الفكرة الأخرى...ومن هذه الكلمات، شعرت أن روعي التي كانت تشبه كتلة متراصّة، صارت "غربالاً"، انفتحت فراغات بين "كل فكرة وأخرى"»⁷³، وهذه علامة مبشرة من أجل غد أفضل بالنسبة لحسين ونفسيته العكرة، وهنا فتح المجال أمام عقله لاستعاب أشياء جديدة: «شعرت أن كل ما أعرفه لا شيء، مقارنة بما يمكن أن أعرفه»⁷⁴، فحسين يعمل على إخلاء سبيل أفكاره القديمة واستقبال أفكار جديدة تخدمه، فكان عقل حسين يتوقف عند أي وكل

⁷¹ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 110.

⁷² - المصدر نفسه، ص 110.

⁷³ - المصدر نفسه، ص 113.

⁷⁴ - المصدر نفسه، ص 13.

شيء، أما الآن فقد وضع قاعدة حسب نظام التغيير الجديد: «إن خطرت في بالي أفكار جنونية من هذا النوع أقول: "دعها تمر"، لا تفكر فيها، انسها حالاً! وأنساها، لا أحللها، ولا أحاول فهمها، ولا حتى أفكر في كوني لا أفكر فيها»⁷⁵، وهنا نلاحظ أن حسين بدأ العمل على تحسين نفسيته، واستقبال ما يفيد من الأفكار فقط.

ومن ضمن هذا التغيير الخروج من دائرة الجنون أو بالأحرى من دائرة الشك، حيث أنه غير من نفسه بدل من أن يقف ويشاهد مراحل تطور جنونه، فأصبح يبحث عن حل لتفادي الجنون في حوار له مع بريّ يقول:

«كيف تعبر في بقعة خطرة؟»...

"بمعرفة أنني أنا، أيضاً، خطر".

ولمعت في ذهني فكرة أن "الجنون" نوع من أنواع الضعف، وللخروج منه، لا بد من "الإيمان" بأننا لسنا فريسة، بل نمور وصيادو نمور وخطرون.⁷⁶، فحسين يريد أن يصطاد بدل من أن يُصطاد ويصبح من مخلفات الحرب، وهذا الجانب إيجابي؛ لأنه الآن يعمل على إخراج نفسه من دوامة الإحباط التي كان يعيشها على المستوى النفسي، فكادت تهوي به إلى الهلاك.

كما أن حسين يؤكد على مواصلة مشواره نحو التغيير، فيقول: «ليس الغريب أن إرادتي تغيرت من إرادة "منسحبة"، "خائفة"، إلى إرادة محارب غاضب يعرف أنه "أيضاً خطر"، فعاد المكان لي بعد أن كان عليّ»⁷⁷، كما أنه يوضح فكرة أن مع الإصرار والصمود يمكن للمرء أن يتغير ويغير من حوله، وأن الفرد هو من يحدد هدفه حسب رغبته: «إن قوة ضربتك ترتبط بقوة قناعتك أنت بها»⁷⁸، فحسين بهاته الجملة أكد على أنه يسعى دائماً نحو الأقوى والأفضل، ونحو كل ما يمكنه من الخلاص والنجاة من هذا الكابوس.

كما أنه يريد تطبيق ما في ذهنه حتى وإن كان الناس لا يروا أن هذا التطبيق له من داعي، فحسين يكتفي بأن يقتنع هو بما يدور في عقله من أفكار، فيشبه تفكيره هذا بعملية

⁷⁵ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 116.

⁷⁶ - المصدر نفسه، ص 117.

⁷⁷ - المصدر نفسه، ص 118.

⁷⁸ - المصدر نفسه، ص 118.

التجميل التي لم يكن لها داع إلا أن صاحبها مقتنع بها: « بعض الزبائن، مثلا، يأتون إليه لإجراء عمليات جراحية تجميلية في أنوفهم، وأنوفهم جميلة جدا...ولذا، توصل إلى أن جراحة التجميل لا تستطيع الاكتفاء بالمشارط والتشريح والمحاليل الكيماوية، يجب أن "تفهم" الذهن الذي "يتخيل" أن الأنف بحاجة لعملية تجميل»⁷⁹، فحسين هنا يشير إلى أن نفهم لا أن ننتقد ونحبط ونخيّب آمال بعضنا البعض، فكل شخص يجب أن يحدد خطاه حينما يشاء، ويكتفي كل فرد بفهم نفسه.

ومن ضمن مخطط التغيير الداخلي الذي وضعه حسين لنفسه نجده يدعو لأن نخلق الجديد بعقولنا لا أن نجعل منه آلة تستقبل وتخزن فقط، وهذه الميزة طغت على العقول العربية؛ إلا أن "خلق الجديد" أصبح سمة الغرب، يقول حسين: «الذهن المتنور كالشمعة تنقل نورها لأية شمعة أخرى وليس ينقص رغم ذلك نورها.»⁸⁰، فحسين كان يعاني من هذا النقص؛ إلا أنه صحا من غفوته، كما أنه ينبه بكلامه هذا العقول العربية بأن تستفيق هي أيضا من غفوتها؛ وإلا ستجر إلى ما هو أسوأ، فيقول موجها كلامه للعقل الراكد: «الذهن الذي "ينقل" أو "يحفظ" يصاب بالشلل إن فقد ماهيته: أن يخلق، ويصير. وأزمة الذهن العربي أنه فقد هذا بالضبط: قدرته على الخلق. لا أعني فقط قدرته على "خلق عالمه"، وتصميم "الدنيا التي يحيا فيها"، بل، وهذا أهم، قدرته على تصميم نفسه»⁸¹، فحسين هنا ينبه العرب من المخاطر التي قد تنجر عن فقدان السيطرة على عقولهم بحيث أنهم لا يستطيعون حتى أن يتحكموا في حياتهم اليومية؛ لأن هناك جهاز التحكم عن بعد هو الذي يحركهم كالدمى.

حتى أن أحلام حسين تغيرت بتغييره، في السابق كانت أحلامه عبارة عن كوابيس مليئة بالمغامرات والركض في الجبال والوديان، أما الآن أصبحت أحلامه توحى بالحرية وأصبحت أكثر راحة من الأحلام الأولى: «وعاودتني رؤية النسر: سماء زرقاء أنا تحتها

⁷⁹ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، 2010 م، ص 126.

⁸⁰ - المصدر نفسه، ص 128

⁸¹ - المصدر نفسه، ص 128.

نسر رمادي يحلق عالياً، ويطير مائلاً، بسرعة فائقة، ويرى كل جغرافيا ذاكرتي، جغرافيا سأعيد صياغتها كلها»⁸²، أحلامه الآن أصبحت متمسكة بالحرية والتأمل ولكل ما هو أحسن. وأخيراً أجهش حسين في البكاء غارقاً في دموعه لتذكره لماضيه الأسود، ففرح له بريّ بهذا الإنجاز فقال: «تعارف طفل الجبل الذي فيك والبحر الذي فيك، وصرتما واحداً، اتسعت، فطوبى لمن يتسعون»⁸³، لأن حسين كان دائماً يخفي أحد الطرفين، إما أن يناقش أمر الإحتلال بينه وبين نفسه أو أنه يتذكر طفولته، فجعلهما شيئاً لا يلتقيان، ولم يكشف أحدهم أمام الآخر، هذا ما شبهه بريّ بطفل الجبل والبحر، أما الآن فقد صرّح حسين لطفولته عن الإحتلال وحكى للاحتلال عن طفولته.

إن حسين لا يزال يشعر ببعض التذمر ولم يستطع أن يتجاوز ما عاشه بسهولة؛ بالرغم من أنه أعلن عن التغيير: «قلبك لم يتعلم أن يشعر يا رجل، ولا أن يعيش في شعوره، إلا في حالة واحدة: تحويل نفسه إلى جحيم»⁸⁴، كما أن حسين يصرّح بأنه ما هو إلا شخص واقف على حافة تلامس تيارين مختلفين، وهذه هي الحياة لا تخلو من الأيام الجميلة ولا من الأيام التعيسة، حيث أنه أشبه نفسه بالبرزخ يقول حسين: «بحر من المشاعر الإيجابية»، كالأمل والفكاهة، وهناك بحر آخر مالح من الألم، والخوف، والندم، والحزن، والانتقام، والحسد، والمشاعر السلبية الأخرى. بين بحر الإيجاب وبحر السلب»⁸⁵، كما أنه ودّع عالمه الهامشي وخرج منه مع بقية الشخصيات الافتراضية التي بنى عليها حسين أحداث سيرته هذه: «بري، يا رجل، يبدو أن وقت الوداع جاء... صديق لك يدعى بري جاء هنا، وقال إنه يتمنى لك السلامة، ترك سياتل»⁸⁶، فحسين دخل للعالم الهامشي من قلة حيلته وتفكيره المشوش وإهماله لنفسه؛ لكن بعدما قرر أنه سيتغير ترك عالمه الهامشي مودعاً أصدقاءه.

إن حسين يستصعب فكرة أن يتظاهر وكأنه عادي وأن شيئاً لم يحدث؛ لأن ما عاشه هو ليس من السهل أن يعيشه أي أحد فيقول: «واخترعت تكنولوجيا مفيداً: أن "أكتم" أقصاي

⁸² - حسين جميل البرغوث، الضوء الأزرق، دارميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 129.

⁸³ - المصدر نفسه، ص 133.

⁸⁴ - المصدر نفسه، ص 170.

⁸⁵ - المصدر نفسه، ص 172.

⁸⁶ - المصدر نفسه، ص ص 190 191.

عمن يحيطون بي، وأن أرتدي قناعا يدعى " العادية " ⁸⁷، كما أنه قرر أن يعيش بداخله، ظاهره يوحي بشيء عكس ما يوحيه داخله، كما أنه قرر التخلي عن روح التحدي والتقدم في كل شيء، وكل ما يقرر شيء يعتبره قناعا: « أن أتشبه بـ"مركز الدائرة"... والمركز في البطن والمحيط كالجنيين في بطن أمه، وهذا البطن قناع، أعطني من فضلك، ماذا؟ قناعا آخر » ⁸⁸، وقرر أيضا أنه سيعيش في عزلة عن الناس لا يجادل ولا يخضع لأي نقاش مع أي أحد وهذا قناع، كما أنه قرر تخطي أحزانه التي تسكن قلبه والتي لاجدوى منها وهذا كذلك قناع، استمر حسين على هذا الحال إلى أن وصل للقناع الخامس.

وبهذا يكون حسين قد أنهى سيرته وأنهى مسيرته نحو التغيير، بعدما مرّ بأزمات جعلت منه كائنا غريبا لا ينتمي لأيّة فصيلة من الكائنات الحية، إنه فتى الجبال حسين الفلسطيني لطالما استتكر هذا اللقب بسبب الاستعمار واستبعاده عن الأراضي الفلسطينية، فكل هاته الظروف جعلت منه شخصا يعيش داخل ذهنه مع شخصيات وهمية لا وجود لها على أرض الواقع، وغير هذا جعلت منه شخصا وجوديا وهذه هي نقطة البداية.

⁸⁷ - حسين جميل البرغوث، الضوء الأزرق، دارميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 197.

⁸⁸ - المصدر نفسه، ص 197.

المبحث الثالث: الإله في الضوء الأزرق

إن حسين لم يتطرق لهذا الجانب بشكل موسع في السيرة؛ إلا أنه ذكر في بعض النقاط الإله والكنيسة وكذلك التصوف والإسلام، كما أنه لم يتطرق للدين الإسلامي الذي كان يعتنقه بشكل واضح وإنما تحدث عنه بشكل عام، لم يلغي حسين بشكل تام القوى الإلهية أو الشك في وجودها وإنما كان يؤمن بقدرة الإنسان أكثر في تغيير الواقع، كما أنه لم يلقي الذنب على الله فيما كان يعيشه من ظروف صعبة، أو شكك في وجوده، كما هو الحال بالنسبة الوجوديين الملحدون، وإنما كان يلوم القوى الإلهية على عدم قدرتها على تغيير الأقدار التي هي مكتوبة له فيقول عبد الرحيم الكردي في علاقة الإنسان بالآلهة: «إذ اكتشف أوديب، وكشف سوفكليس، وكل من يشاهد مأساة "أوديب ملكا" أن الإنسان لعبة في يد القدر»⁸⁹، فهذا بالضبط ما كان يقصده حسين ويرفضه في نفس الوقت، فهو يرفض أن يلعب دور الدمية التي يرتبط مصير تحريكها بحاملها.

تحدث حسين عن تجربة عاشها في الكنيسة، تجربة كان يتأمل من خلالها أن يخرج من دائرة دماره، كانت على شكل جلسات، كل جلسة تكون على يد شخص معين، وهنا قد يكون حسين يوضح فكرة أن مصيره خرج من القبضة الإلهية إلى القبضة الإنسانية التي تحرك مستقبله.

بدأت تجربته في "كنيسة الديانتك" بحيث أن حسين اختار هذه الكنيسة دون غيرها لأنها تعتمد على الخيال العلمي وتتخلص فكرتهم في مكننة الإنسان والعلاقات الإنسانية على جميع المستويات بدءاً بالفرد ونهاية عند الدولة، كما أنهم يريدون تخلص الإنسان من الخصائص الإنسانية التي يرونها موطن ضعف، وهدفهم محو الإرادة الشخصية، فهذه الكنيسة تصف بأنها منظمة غير نفعية تسعى لإصلاح وإعادة تأهيل الروح الإنسانية.

فحسين لجأ للكنيسة من أجل إعادة وتأهيل روحه كما تدعي هذه الكنيسة حيث قال: «الكنيسة ستخلصني من خرابي بمساعدة التتكة»⁹⁰، بعد أن فقد ثقته في نفسه من تغيير الوضع السائد في فلسطين، كما أنه لم يترك القضية الفلسطينية تحت تصرف الإله

⁸⁹ - السرد وأسئلة الكينونة، بحوث مؤتمر عمان الأول للسرد، 10/12/2012، جمع وإعداد حاتم بن التهامي الفطناسي،

الجمعية العامة للأدباء، ط1، كتاب دبي الثقافية 77، دار الصدى، سنة 2013، ص 106.

⁹⁰ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 28.

وإنما حولها للكنيسة، فحسين لم يخضع في كينونة الله أو الشك في قدرته وإنما جعل تغيير المصير الفلسطيني في الكنيسة تحت تصرف أشخاص معينين، وهنا حسين لا ينفي الدين كونه وجودي مؤمن، كما اعتبر البرغوثي هذا الخلاص خلاص يقوم على المادة، وأن هذه الكنيسة هي للتجارة وليست لتغيير نفسية الإنسان؛ حيث أنه حاول استقزاز أحدهم فقال: «إنني فاصلت المرأة التي عند المدخل على "سعر الخلاص"»⁹¹، وبهذا يكون حسين قد أنقص من قيمة الكنيسة التي أصبحت تتاجر بمخاوف الناس.

لم يتخل حسين عن فكرة أنه يوجد إله هو المسيطر على الكون وله القدرة الكافية على حل مشاكله المتعلقة بموطنه المستعمر؛ إلا أنه في كل مرة يغير في حامل هذه القوى، ففي المرة الأولى جعلها تحت خدمة الكنيسة أما هذه المرة الثانية جعلها تحت سيطرة التصوف؛ بحيث رسم شخصية صوفية في عالمه الهامشي.

إن التصوف كما هو متعارف عليه هو مجموعة من المراحل يمر عليها العارف للوصول إلى درجة الانصهار في الذات الإلهية، حيث يصبح الإنسان يكتسي بصفات الإله، ومن أجل هذا اختار حسين شخصية صوفية كونها عملة ذات وجهين، الأولى أنه إنسان وموجود في عالم البشرية يرى ويعي مشاكل الفلسطينيين من بينهم حسين، والوجه الثاني أنه حامل لقوة الله وصفاته وبهذا يكون قادر على تسليطها على توجيه حسين إلى ما هو أصح، حيث يقول الصوفي لصديقه حينما وجّه له الكلام: «إن الله يتكلم»⁹²، وبهذا يكون ضمحل حسين ذات الصوفي في ذات الإله ومنحه القوة من أجل انقاضه.

كان "بري" يتمم بعبارات غير مفهومة فترجمها حسين حسب القاموس الذي وضعه للغة صديقه هذا فيقول: «بيور بري أوم، مني بدها أوم كتبت مايلي:

1. بيور: كلمة إنجليزية تعني النقي، الطاهر

2. بري: اسمه... مشتقة من "بريء" أو من "باري" (أحد أسماء الله الحسنى). ويبدو

أن سبب تغييره لاسمه هو اعتقاد بقدرته الاسم السحرية على التأثير على المسمى... فإن تغييره لاسمه يعني رغبته في تغيير هويته، التي تقع تحت السلطة السحرية للاسم الجديد. إن

⁹¹ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 30.

⁹² - المصدر نفسه، ص 35.

كان اسم "بري مشتقا من "باري" فإنه يتشبه بالله»⁹³، فحسين هنا يمنح للإنسان الطاقة الإلهية من أجل التغيير، وفي باقي السيرة يأخذ هاته الشخصية من أجل استشارتها في بعض الأمور التي تتعلق به وبمصيره وكأن صديقه بري له الحكمة في التوجيه، والقوة في المواجهة، والسيطرة على ما هو خارج قدرة حسين، فهو بحاجة إلى كل هذه الأشياء، فحسين لما منح هاته الصفات لكائن بشري ليس بمقصود نفي القدرة الإلهية؛ وإنما من أجل توصيل فكرة أن التغيير لا يأتي بالقوى الإلهية فقط وإنما تحتاج إلى فاعل.

ويكمل الشرح فيقول:

«3.أموني بدها: يبدو أن لهاتين الكلمتين أصولا في السنسكريتية...الطاقة في كل مكان»
 4.أوم: مقطع مقدس يردده رهبان التبت في الهند»⁹⁴، وهنا جمع حسين بين العديد من الديانات منها ما هو سماوي ومنها ما هو مستوحى من الخرافات، فالكل يصب في قالب الألوهية والربوبية التي هي قاسم مشترك بينهم، والتي يؤكد عليها حسين وعلى مدى حاجته إليها، فهو يدعوها أينما وحيثما كانت، وهذا ما أكده حسين في قوله: «فالتعويزة صلاة سحرية، بكلمات شتى من لغات شتى وأزمة شتى، تدل...على هوية شخص ليس مسلما أو يهوديا أو مسيحيا أو عابد أصنام أو أي شيء آخر، لأنه "كل هؤلاء"، صلاة سحرية لله أو للكون و للطاقة»⁹⁵، وفي حوار آخر لحسين مع بري يكلمه بطريقة مبهمة وبلغة صعبة، كلمات تحمل معنا ثقيل وواسع وكأنه يكلم "الله"، فيقول: «اسمع يا رجل! أنا لست النبي موسى، ولا أطلب من الله أن يكلمني تكليما، لكن وصلت في الحياة إلى منطقة حرام، أمامي أسلاك شائكة وشفق ليس كأبي شفق آخر، وأرض ممنوعة. أنا مرتعب من فقدان عقلي من الجنون. لا أستطيع العودة من حيث جئت، وعبور السياج قد يعني الجنون، وأنت من سكان ما خلف السياج، ماذا هناك؟»⁹⁶، فحسين هنا يوجه كلامه إلى الله، يشكو له همه وفقدانه لوطنه وحرية، ويوضح مدى عجزه أمام غياب القوى الإلهية، فسؤال حسين "ماذا هناك" لم

⁹³ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 56.

⁹⁴ - المصدر نفسه، ص 56.

⁹⁵ - المصدر نفسه، ص 57.

⁹⁶ - المصدر نفسه، ص 59.

يطرحه فقط من أجل التساؤل عن مستقبله و مستقبل وطنه وشعبه بل يتعدى إلى معنى متى يستمر هذا الوضع الذي قد يكلفه ثمن سلامة عقله الذي هو على حافة الجنون.

أما الآن ينتقل حسين إلى الدين الإسلامي بعدما خاض تجربة في الكنيسة التي تمثل الدين المسيحي وقوة الإله فيه، فقد تكلم حسين عن الدين الإسلامي هنا من خلال رموز و إشارات توحى بذلك فيقول: « ليلتها، حلمت بالبحر يطاردي، ولسنوات، تكرر الحلم نفسه. قالت لي أمي أن أضع ورقة من القرآن الكريم تحت رأسي لـ"إبعاد الشر"، وضعت "سورة مريم" تحت مخدتي، ثم سورة "يوسف"، ثم القرآن بأكمله، وظل البحر يطاردي.»⁹⁷، فحسين رمز للاستعمار الصهيوني بمطاردة البحر له، أما القرآن الكريم فهو يشير إلى الدين الإسلامي وعلاقة الإنسان بربه من خلاله، وتجلي ذلك في استعانة والدته بالقرآن لإبعاد الشر، والشر الذي يريد حسين إبعاده هنا هو معانات الشعب الفلسطيني من الاستعمار، ويوضح كذلك أنه زمن المعجزات قد انتهى؛ وذلك من خلال عجز القرآن عن طرد الكوابيس والأحلام المزعجة التي كانت تراوده، أراد حسين أن ينوه إلى فكرة أن النصر والحرية لم ولن يأتيًا بجمع الأيدي والتضرع لله ﷻ؛ بل يأتي بالمقاومة والكفاح والتوفيق من عند الله، فالتغيير مرتبط بعزيمة الإنسان الذي يريد التغيير، وهذه المرة الثانية التي يتكلم فيها حسين عن الإيمان دون الخضوع في كينونة الله أو التعدي على حدوده.

كما تكلم حسين عن العجوز الشيعية التي تقرأ كف اليد، حيث أنها تستعين بأرنبين أحدهما أسود يمثل فال الشر أما الأرنب الأبيض فيمثل فال الخير، تنتقي بواسطتهما قصاصة ورقية وتلك هي حظ المقروء له، وفي هاته المرة لجأ حسين في عالمه الهامشي إلى عالم الخرافات والشعوذة وكأنما يقول أن الحل الذي استوجب على الإله تقديمه لنا سأجده عند عالمة الغيب، فلما تحدث حسين عن الحوار الذي دار بين أبيه و هاته العجوز قال: « وليد صغير، وليد جبال، ولكنه يستيقظ فزعا كل ليلة وهو يحلم أن البحر يطارده... رأيته؟...»

العرافة: فال خير...»⁹⁸، هنا يشرح والد حسين للعرافة وكأن الحل بين يديها، فحسين يشير بالبحر إلى الاستعمار ومعاناته معه، فلما طمأنته العرافة بالخير هدأ وسكن روعه كأنها إله

⁹⁷ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 44.

⁹⁸ - المصدر نفسه، ص 47.

تعلم ما في الغيب وما هو مخفي، فحسين في كل كلامه في هذا الموضوع -الإله- هي مجرد محاولات لإيجاد حل للخروج من أزمته.

وفي كلام آخر لحسين يعود إلى صديقه بري الذي يتحاور معه وكأنه الله، فيقول: «يارجل جاءني طائر الأزرق الليلة»⁹⁹، فحسين يوضح أن شكواه قد بلغت الله، فاللون الأزرق كما وضعنا سابقا هو الخوف، وعدم الراحة، والقلق، وقلة الطمأنينة، وغيرهم من الأحاسيس التي توحى بعدم الراحة النفسية، فقوله "طائر الأزرق جاءني" يقصد بها أن قلقك وشكواك قد وصلا.

وفي قول آخر يكون قد طمأن حسين بأنه سيأتي يوما وتتحقق أحلامه فيه فيقول: «أنا كتلة من الديناميت... سأنفجر، بوم! بوم! سأبعث الضوء الأزرق عاريا نحو بيته»¹⁰⁰، فأخر جملة من كلامه السابق توحى على أنه ما كان قد طال انتظاره سيأتي يوما ويتحقق.

إن حسين يعتبر الله مجرد قوة خامدة وكأنه جالس يشاهد ما يدور من أحداث بين فلسطين وإسرائيل، يقول حسين: «الله الآن قوة صامتة، منذ نزول القرآن لم ينزل الوحي على أحد". "سأكتب كتابا عن قوة الصمت"¹⁰¹، هنا كالعادة يوضح أن الله يمثل القوة ولكن قوة لم تستغل لصالح فلسطين، قوة لم تنصر المظلوم على الظالم، كما أن حسين يوجه لوم واضح على ركود القوى الإلهية فيقول: «لو يصمت البحر الذهني ويتعلم من صمت الله»¹⁰²، فالبحر الذهني يقصد به قوة التفكير المشوش الذي يعاني منها حسين على مستوى العقل والقلب، ويوضح لنا هنا فكرة بما أن الإله صامت فلما أنا أفكر.

إن حسين يشير في جزئية في السيرة على أنه لا بد أن تتحدى القوة الإلهية مع القوة البشرية من أجل تحقيق التغيير، والوصول إلى الهدف المراد، فيحكي حكاية الراهب مع الشاب الذي تكفل به وعلمه الكونغ فو، كانت له نصف ميدالية ذهبية فأرشده أين يجد النصف الثاني، فلما عجز عن إيجاده وتعرض للهجوم من قبل قطاع الطرق تخيل: «معلمه من "تشاولين" يهتف به: معك أنت نصف الميدالية الآخر، أنت هو الوحيد الذي يستطيع بأن

⁹⁹-حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 54.

¹⁰⁰- المصدر نفسه، ص 60.

¹⁰¹- المصدر نفسه، ص 90.

¹⁰²- المصدر نفسه، ص 70.

يعلمك أكثر مني»¹⁰³، فحسين هنا يشير بالراهب إلى الله، وبنصف الميدالية إلى قوته، أما النصف الضائع من الميدالية فهي قوة الشعب التي لم يوحدتها مع قوة الإله.

ملّ حسين من وجود الله، ومن وجود قوته دون تغيير مما هو موجود، فكل ما هو موجود بقي على حاله لم يتغير: « منذ الطفولة، كنت أمشي في البراري، وأنا أحمل أنبوبة برتقالية من خشب تدعى "قلم"، وأتمم: "قلم! قلم! قلم!"، ولا أرى أي صلة بين هذه الكلمة وتلك الأنبوبة. وبدت لي "الكلمات" كلها وجودا سحريا، روحا مائعة هائمة فوق الأشياء، مثل روح الرب فوق الماء»¹⁰⁴، فحسين اعتبر قوة الله مجرد حبر على ورق أو مجرد خرافة آمن بها بالفطرة، اعتبرها شيء يطفو لا يغوص فيغير من طعم ولون الشيء، فقوة الله لم تتغلغل في القضية الفلسطينية ولم تغير من الواقع شيئا.

كانت ثقة حسين بوجود الله كاملة، إلا أنه يلوم في كل مرة لماذا الله بتلك القوة ولم ينقض وطني فلسطين؟ هذا ما كان حسين يردده، إلا أنه في أواخر السيرة بدأت تدور أسئلة في ذهنه على غير عادته، بعدما نفذت له كل أنواع اللوم التي ألقاها على عاتق الله صار يشكك الآن في وجود الإله، وغيرها من الأسئلة التي توحى بوجوديته: « سوف يحرسني الله، يحرسني الله!. وماذا لو كان الله قد خلق الكون، ونسي أن يخلقني أنا وحدي، فرخ الأهل هذا، هل كان يهم الله لو نسي خلقه؟ وتلبستي أسئلة لا حل لها في تلك الليلة: ماذا لو كان الله قد نسي خلق الكون بأكمله؟ وماذا لو خلقني الله في الكون وحدي فقط؟ ثم هبط أثقل الأسئلة: وماذا لو لم يكن الله موجودا؟»¹⁰⁵، فبعلامته الاستفهامية يوصل لنا الكثير من الكلام من بينه " إذا أراد الله حمايتي الآن أينه من قبل؟ لماذا لم يحمي أخي وأبي وكل الشعب الفلسطيني من قبل؟ أين هو من الأحداث الجارية في فلسطين؟ لماذا سمع بالبحر يطاردني طوال هذه السنوات ولم ينجني منه؟ لماذا سمح لهم بطردني من وطني؟ ومن هنا يباشر في طرح أسئلته التي جاءت بعد علامة تعجبه تلك "يحرسني الله!" فكل الكلام الذي كان يتستر خلف علامة الإستفهام باح به حسين من خلال أسئلته هذه التي على خلاف عادته، والتي لم يكن يطرحها.

¹⁰³ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 103.

¹⁰⁴ - المصدر نفسه، ص 134.

¹⁰⁵ - المصدر نفسه، ص 143.

يوضح حسين في بعض أقواله في السيرة أن الكل متوقف عن عمله في انتظار الآخر لإنجاز مهامه، قد يتواكل أحد الطرفين على الطرف الآخر من أجل إنهاء الأشغال، فيمثل هذا القول في مايلي: « هتفوا، لما دخلت والمكنسة في يدي: "ياالله، نظف المصطبة كلها، يا الله!"، قلت لهم: "لن أنظف أي شيء قبل أن تنزلوا جميعا عن عروشكم". "لن ننزل حتى تنظف المصطبة كلها، يا الله. تخيل يا رجل، تخيل، يفعلون هذا بي!"¹⁰⁶، ففي كلامه هذا نجد معنى أن الله قوته خامدة فانتظار الشعب للقيام بما عليه من مهام ثم يأتي دور الله للقيام بما عليه هو الآخر، فلا يمكن لله أن يبادر فهذا يولد اختلال في توازن مكانته، فهو كل ما عليه تدعيم القوى الإنسانية وتوفيقها لا للقيام بمهامها.

إلا أنه يأتي الوقت الذي يصحو فيه حسين من نوبته هذه ويتذكر أنه يعرف جيدا أن الله موجود فيقول: « الجنون عندي كالرب، زنبقة من هذا النوع، أعرف أنها موجودة، كانت ما كانت، وهي ما هي، وستكون ما تكون، كنت أجهل أي شيء عنها ما عدا "وجودها"¹⁰⁷، نعم بالفعل هو على دراية أن الله موجود؛ إلا أنه لم يعترف بقواه أو ما يستطيع الله فعله وأن الله قادر على كل شيء.

وفي نهاية السيرة يوضح حسين أن الضوء الأزرق هو الله، فيقول في حوار له مع بري: « قلت: "قل لي بوضوح: ما الضوء الأزرق؟" قال: "ستصله بطريقتين: إما بالرقص أو بالعقل" "ووصله، هل هو كصعود الدرج؟"

قال: "نعم، تجاوز نفسك، إما أن تتجاوزها بالوجود أو بالمفاهيم" «¹⁰⁸، فبري يتحدث هنا مع حسين بطريقته الصوفية، فالصوفي هو من يدعي أنه يرى الله في أقصى درجات الفناء وهو الشطح الصوفي، وهنا يتبين لنا أن الضوء الأزرق هو الله.

كما أنه يوضح في موقف آخر نفس الفكرة حين روى قصة النبي محمد ﷺ مع نسيج العنكبوت قال: « ولم تدرك قريش أن "خلف النسيج" وجهها، هذا خير الأئمة: أن يبدو الوجه

¹⁰⁶ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 181.

¹⁰⁷ - المصدر نفسه، ص 193.

¹⁰⁸ - المصدر نفسه، ص 195.

للخارج نسيج عنكبوت لا يرى عبره أحد إلا من سافر في صحبة الضوء الأزرق»¹⁰⁹، فيوضح أن الله حين أراد أن يحمي نبيه حماه خلف أضعف شيء وهو نسيج العنكبوت، أما في قضيته لم يبذل جهداً بل دفعه لارتداء أقنعة من أجل التظاهر بأنه على ما يرام. ففي هذه الجزئية نرى أن حسين لم يلغي فكرة وجود الله وقوته؛ وإنما أراد أن يسلطها على الاحتلال، وبما أن الله يتميز باسم وصفة العادل لماذا هو غير منصف في هاته القضية؟ وهذا ما كان يشوش عقل حسين، ويبقى حسين وجودي مؤمن غير خاضع في كينونة الله ولم يتعدى حدوده.

¹⁰⁹ - حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط 3، سنة 2010 م، ص 199.

الخاتمة

خاتمة:

توصلنا في هذا البحث إلى مجموعة من النتائج نوجزها في:

أن الوجودية ليست حديثة النشأة وإنما ظهرت مع الإنسان البدائي، ومع مرور الوقت خصص لها علم قائم بذاته سُمي بالفلسفة الوجودية، والاختلاف الذي يكمن بين الوجود القديم والحديث أن الإنسان القديم كان يعبر عن وجوده من خلال التغيير في الوسط الذي يعيش فيه من بناء وتأسيس وازدهار، وهذا ما وجدناه في الحضارات القديمة، أما الوجودية بعدما أصبحت علم باتت حبرا على ورق تبحث عن الحرية والعبثية فقط.

وأن الفلسفة الوجودية اتخذت من الأدب مادة هامة للتعبير عن الوجود، ودراسة سلوكياته، فهي من أفضل الوسائل لتحليل الواقع الإنساني والكشف عن سائر الضغوط التي يعاني منها، كما نجد فلاسفة هذا التيار أدخلوا على الوجودية عنصر العبثية، الذي يجسد صورة حياة الإنسان الذي لا جدوى منها، ومن بين هؤلاء الفلاسفة نجد ألبير كامو الذي تجلت هذه التيمة في رواياته، وأن دخول الوجودية على الأدب كان سلسا وسرعان ما ألفها الأدباء، فألفوا كل ما يعبر عن حريتهم بالفلسفة الوجودية، وكانت المادة التي اعتمدها الأدب في منطلقه.

التيارات الأدبية تيارات متواصلة، تتلاقح مع التيارات الفكرية الأخرى وتتأثر بها، ويعد الأدب الوجودي فلسفة القرن العشرين لما لقيه من رواج، وقد تخطى الحدود الأوروبية ليصل إلى الوطن العربي ويصبح تيارا مهما فيها لما يحمله في ثناياه، ووجدت الأجيال العربية فيه ما يعبر عن حالتها النفسية والاجتماعية والتحرر من القيود، وهو ما وجد في فلسفة سارتر وغيرهم من الأدباء الوجوديين الغربيين، دون أن ننسى بالذكر أيضا أن الرواية العربية كجنس أدبي تأثرت بالوجودية، وخير مثال على ذلك الروائيين "نجيب محفوظ" و "محمود المسعدي"، هذا فيما يخص الجانب النظري

أما في الجانب التطبيقي فنستخلص أن حسين وطفة كل ما يمكن للكاتب الوجودي أن يتميز به عن غيره من الكتاب من رموز وخيال واسع وكلام مبهم ومشوش، لنجد أن حسين قد تكلم بشكل واسع عن الأزمة الفلسطينية واللبنانية التي عاشها بسبب المستعمر الصهيوني، كما قمنا بتحليل شخصيته التي كانت مدمرة كما هو الحال بالنسبة للوجوديين، فتحدث عن طفولته المغتصبة وشبابه المنفي خارج القطر الفلسطيني، أما حديثه عن الإله لم

يتجاوز حدوده كونه وجودي مؤمن، غير أنه لام القوى الإلهية على عدم قدرتها على التخلص من الظلم السائد في أرضه.

وأخيرا نشكر الله عزوجل ثم أستاذنا الفاضل "زبير بن سخري" على وقوفه معنا طوال فترة عملنا هذا، ومساندته وإرشاده لنا

المصادر و المراجع

المصادر و المراجع:

القرآن الكريم (رواية ورش عن نافع)

أولاً: القواميس والمعاجم

- (1) أبي عبد الرحمن بن أحمد الفراهيدي، العين، دار المعارف، القاهرة، ج 7،
- (2) الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس
- (3) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، معجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط5، سنة 2011
- (4) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، قاموس محيط المحيط، دار الجيل

ثانياً: المصادر والمراجع

- (1) أبو الوفا التفتازي، الإنسان والكون في الإسلام، دار الثقافة، سنة 1955
- (2) إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته، تر: محمود منقذ الهاشمي، ط1، سنة 2007
- (3) ألبير كامو، الغريب، تر: محمد آيت حنا، منشورات رواية بغداد، بيروت، ط1، سنة 2014
- (4) بيير دو كاسيه، الفلسفات الكبرى، تر: جورج يونس، منشورات عويدات، بيروت، ط2، سنة 1977
- (5) جان بول سارتر، سارتر بين الأدب والفلسفة، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار مكتبة الحياة، بيروت، سنة 1981
- (6) جان بول سارتر، ما الأدب والفلسفة، تر: محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، سنة 1984
- (7) جان بول سارتر، الوجودية منزوع إنساني، تر: محمد نجيب عبد المولى/ زهير المدني، دار علي، تونس، ط1، سنة 2012
- (8) جان بول سارتر، سارتر والفكر العربي المعاصر، دار الفارابي، بيروت، تحرير أحمد عبد الحليم عطية، ط1، سنة 2011

- 9) جون ماكوري، الوجودية، تر: إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة علم المعرفة مجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 58، الكويت، سنة 1978
- 10) حسين جميل البرغوثي، الضوء الأزرق، دار ميم للنشر، الجزائر، ط3، سنة 2010
- 11) ر. م ألبيريس، الاتجاهات الأدبية في القرن 20، تر: جورج الطربوشي، منشورات عويدات، بيروت، سنة 1980
- 12) روجر. شن، الموقف الوجودي نظرة عالم مسيحي إلى الفلسفة الوجودية، تر: أنس فريحة، الخدمة العربية للكراسة بالإنجيل
- 13) سيمون دي بوفوار، الوجودية وحكمة الشعوب، تر: جورج الطربوشي، دار الأدب، سنة 1962
- 14) غاسلون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، لبنان، ط2، سنة 1984
- 15) محمد سعيد العشماوي، تاريخ الوجودية في الفكر البشري، دار القومية للطباعة والنشر
- 16) ميخائيل بالميو، كيف طرد الفسطينيون من ديارهم سنة 1948، دار الحمراء، ط1، بيروت 1990
- 17) نبذ تيكروتشييه، علم الجمال، تر: نزيه الحكيم، دمشق، سنة 1963
- 18) نجيب محفوظ، أولاد حارتنا، دار الشروق، سنة 2006

ثالثا: الملتقيات

- 1) السرد وأسئلة الكينونة، بحوث مؤتمر عمان الأول للنشر، 19/12/2012، جمع وإعداد حاتم بن التوهامي الفطناسي، الجمعية العامة للأدباء، ط1، كتاب دبي الثقافية 77، دار الصدى، سنة 2013

رابعا: الرسائل الجامعية

- 1) بوشيبة الطيب، الوجودية في الرواية العربية المعاصرة في بلاد الشام سهيل إدريس نموذجاً، أطروحة الدكتوراه، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران 2011/2012
- 2) عمري جميلة أمينة، تجليات المذهب الوجودي في رواية "يوم رائع للموت" لسمير قسيمي، مذكرة شهادة الماستر، كلية الآداب واللغات، قسم الأدب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة 2015/2016

خامساً: المجلات

- 1) جون ماكوري، الوجودية، تر: إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة علم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد 58، الكويت، سنة 1978
- 2) موت الرب وموت الأب، دراسة في الإتحاد الوجودي " نيتشه ودوستوفيسكي"، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، العدد 19

سادساً: المواقع الإلكترونية

- 1) غدير خالد، دلالات الألوان في علم النفس، سنة 2018 <https://mawdoo3.com>
- 2) مصلح القحطاني، أكاديمية علم النفس، السعودية سنة 2009،
<https://acofps.com/vb/4549.html>
- 3) نبيل محسن، علم النفس الكوني، دمشق،
<https://acofps.com/vb/4549.html>

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوعات
-	شكر و تقدير
-	إهداء
أ - ج	مقدمة
27-6	الفصل الأول: الوجودية من القديم إلى الحديث وعلاقتها بالأدب-
7	المبحث الأول: ماهية الوجودية ونشأتها
7	المطلب الأول: تعريف الوجودية
13	المطلب الثاني: تاريخ الوجودية
19	المبحث الثاني: الوجودية والأدب
24	المبحث الثالث: الوجودية والأدب العربي
24	المطلب الأول: أثر الوجودية في الأدب العربي
25	المطلب الثاني: أثر الوجودية في الرواية
67-29	الفصل الثاني: التجربة الوجودية عند البطل في سيرته الضوء الأزرق
30	المبحث الأول: البطل والأزمة السياسية
31	المطلب الأول: تحليل الشخصيات الإفتراضية
37	المطلب الثاني: سيميائية المكان

44	المبحث الثاني: شخصية حسين في السيرة
60	المبحث الثالث: الإله في الضوء الأزرق
69	خاتمة
72	المراجع و المصادر
-	فهرس الموضوعات